من ملف المخابرات

K.G.B

أسرار الجاسوسية السوفيتية



КГБ СССР

إعداد
عمرو يوسف



مكتبة معروف

من ملفات المخابرات

أسرار الجاسوسية السوفيتية
k.G.B

إعداد

عمرو يوسف

مكتبة معروف

مكتبة معروف

الإسكندرية - ٤٨١٠٨٢٨ / ٤٨٤٦١٢٥ فاكس - ٤٨٦٠٠٨٩ القاهرة - ٠٢/٤٠٣٧٧٩٢
ص .ب . ٣٧٠ الإسكندرية
maarouf 2004@ hotmail . com .

المقدمة

أن الخوض فى الملفات السرية لأجهزة المخابرات الكبرى هو عملية مثيرة للغاية وحافلة بالغموض ، وذلك لأننا نتناول أدق وأخطر الأسرار والتى بقيت طى الخفاء لفترات طويلة وكشفت عنها الأيام ، أو تم الكشف عنها بالصدفة البحتة ، وأخيراً فقد يتم الكشف عنها بواسطة جهاز آخر المخابرات أستطاع أختراق الجهاز المعادى بوسيلة ما وقام بفضح تلك الأسرار لهز الثقة فيه .

وقد حفل القرن العشرين بصراعات هائلة بين كبرى أجهزة المخابرات فى العالم ، وعلى الأخص بين المخابرات الغربية وبين المخابرات السوفيتية والشرقية ، بالإضافة إلى المخابرات فى ألمانيا النازية ، والتى أنهارت عقب الهزيمة فى عام ١٩٤٥ ، وكانت أكثر العمليات إثارة تلك التى كان طرفاها المخابرات الأمريكية C.I.A والمخابرات السوفيتة والمعروفة أختصاراً بالأحرف k.G.B ، ويعد الأخير هو الأكثر عراقة واحترافاً فى فنون الجاسوسية وأساليبها كما سنرى على صفحات هذا الكتاب ، فالجاسوسية الروسية ثم السوفيتة فيما بعد تعد مدرسة مستقلة عن باقى مدارس الجاسوسية ، ورغم أنهيار الإتحاد السوفيتى وتفكك الإمبراطورية الشيوعية الشاسعة ، إلا أن هناك الكثير من المعلومات والأسرار التى ماتزال محجوبة عن العالم وخاصة أسرار الجاسوسية السوفيتية .

أما ما وصل إلينا من أسرار المخابرات السوفيتية فهو كثير جيداً ، وغالباً ما ينصب على العملاء السوفيت والجواسيس الذين نجحوا فى اختراق أجهزة المخابرات الغربية ، فمن ينسى فضيحة أختراق المخابرات البريطانية

العريقة وتجنيد عدد من أهم وأخطر القيادات فيها ؟ بالإضافة إلى ذلك فهناك عدد آخر من قصص الفشل والتى تم فيها الإيقاع بالعملا السوفيت متلبسين بالتجسس لحساب المخابرات السوفيتية .. وكانت تلك ضربات موجعة للشيوعيين ، ولكنها طبيعة العمل فى المخابرات .. عمليات ناجحة وأخرى فاشلة ، ونوع ثالث من العمليات وهو أكثرها خطورة .. وفيه يتمكن الجاسوس من الأندساس وسط أجهزة الدولة المعادية ويظل يعمل فى الخفاء على جمع المعلومات وتسقط الأسرار والتقاط الصور والأخبار ، دون أن يشعر به أحد حتى يصل إلى سن التقاعد .. تلك السن التى لا يعد بإمكانه العمل بالتجسس بعدها .. فيعود إلى الدولة التى وظفته ويلقى معاملة كريمة تليق بما قام به من مجهودات فوق العادة أفادت تلك الدولة كثيراً !! وقليل جداً من هذا النوع هم الذين يعرفهم العالم ويعرف ما فعلوه خلال سنوات عملهم بالتجسس ، وغالباً ما تحدث هذه الحقيقة أنفجاراً فى الدولة (الضحية) !!

يوجد أختلاف كبير فى تناول أسرار المخابرات السوفيتة K.G.B والمخابرات الأمريكية C.I.A ؛ فالأخيرة توجد فى دولة تقدس الحرية وتسمح بتداول الكثير من الأسرار الخطيرة بما فيها أسرار المخابرات على الملأ ، إلا ما يتعلق بأمن وسلامة الدولة وأمن بعض الأشخاص ، فهذا يظل محفوظاً إلى حين انقضاء أغراض السرية فيتم الإعلان عنها ، أما فى حالة الـــ K.G.B فمن الصعب الإعلان عن العمليات الكبرى والمتعلقة بتدبير المخابرات للمؤامرات التى تطيح بأنظمته الحكم فى دول ما وتضع أشخاصاً بعينهم فى مواقع القياة ، فالمخابرات خاضعة لتوجيه قادة الدولة المعدودين على الأصابع ، وليست جهازاً مستقلاً كالمخابرات الأمريكية التى يعرف العالم أجمع مما تتكون ، وما هى الأجهزة المساعدة لها ★، ولذلك فإن معظم المعلومات عن جهاز المخابرات السوفيتة مستقاة من العملاء

★ أنظر كتابنا (أخطرالأسرار من ملفات الـ C.I.A)

والمنشقين والمناوئين للحكم الشيوعى ، وكانوا قبل إنهيار الإتحاد السوڤيتى قوة كبرى لا يستهان بها، يستغلها الغرب أفضل أستغلال لتشوية صورة الدولة السوڤيتية .

ومن الأمور العجيبة حقاً والتى لا يكاد المرء يصدقها ما ذكره بعض المهتمين بالتجسس والجاسوسية وهو أن عدد الجواسيس التابعين للإتحاد السوفيتى ، والعاملين فى مختلف ول العالم يتعدى ربع مليون جاسوس !!

وذلك إبان حقبة الستنيات وقت أشتعال الحرب الباردة بين الدولتين العظمتين .. الولايات المتحدة والإتحاد السوڤيتى !! من الواضح أن هذا الرقم الضخم قد بنى على تقديرات غير دقيقة ، ولكن يمكن اعتباره صحيحاً إلى حد ما إذا ما تمت المقارنة مع عملاء المخابرات الأمريكية C.I.A والذى قدر فى تلك الفترة بحوالى مائة ألف جاسوس فالمخابرات السوڤيتة كانت تعتمد على الجواسيس أكثر من الولايات المتحدة ، ولها مدرسة (عريقة) فى فنون الجاسوسية كما سنرى ، ومما جعل الإتحاد السوڤيتى يمتلك هذا العدد الهائل من الجواسيس ، وينجح فى أختراق أجهزة المخابرات الكبرى ، ويجمع أخطر المعلومات والأسرار هو أن الدافع الأول لأولئك الجواسيس لم يكن المال فقط كما هو الحال بالنسبة لباقى الجواسيس ، بل أن عدد كبير منهم كانوا يندرجون تحت مسمى جواسيس العقيدة ، أى أنهم يعتنقون المبادئ الشيوعية التى حملت لوائها دولة الإتحاد السوڤيتى ، وكانوا يضحون بأنفسهم من أجل نصرة الشيوعية !! ويعتبرون تجسسهم على دولهم ونقل أسرارها إلى السوڤيت هى أعمال جليلة لنشر الأمن والسلام فى العالم !!

وما جعل المخابرات السوڤيتة K.G.B طرفاً أساسياً فى معظم عمليات الصراعات الكبرى بين أجهزة المخابرات ، هو السعى الدؤب للسوڤيت للوصول إلى أسرار الأسلحة الإستراتيجية والقنبلة الذرية ، حيث كان

السباق محموماً للوصول إلى أسلحة الدمار الشامل وعلى رأسها القنابل النووية ، وأستخدام السوڤيت ببراعة سلاح العقيدة الشيوعية للوصول إلى عدد كبير من أخطر العملاء ، والذين نجحوا فى نقل أسرار القنابل والأسلحة بالكامل إلى الإتحاد السوڤيتى !! لقد كانت تلك العمليات شديدة الإثارة وتفوق إلى حد كبير الروايات والأفلام التى تدور حول هذه الأمور ، وقد أستخدمت فى هذا الصراع كافة الحيل والأدوات التى تساعد الجواسيس للوصول إلى أهدافهم وأختراق تحصينات الأعداء .. وكان العنصر البشرى هو أهم العناصر على الإطلاق وأكثرها فاعلية .. فمن خلال الجواسيس البارعين حصل السوڤيت على أخطر أسرار الأسلحة والقنابل فى القرن العشرين من تلك التى سبقتهم إليها الدول المعادية !!

وقد تطورت إلى حد مذهل وسائل التجسس وذلك خلال هذ الصراع الرهيب بين الدولتين العظمتين خلال القرن العشرين ، فبالإضافة إلى الأعداد الهائلة من الجواسيس والعملاء كانت هناك طائرات التجسس التى كانت الولايات المتحدة سباقة إليها من خلال أنتاج طائرات خفيفة يمكنها الطيران لإرتفاعات عالية جداً وتصوير أكبر مساحة من أرض العدو بدقة .. فيتم التقاط صور المصانع الحربية ومصانع الأسلحة والذخائر والسفن والطائرات ، وصور المواقع والأهداف الإستراتيجية والقواعد العسكرية ، بالإضافة إلى الصناعات المدنية وتحركات الجيوش والأساطيل وغيرها مما يهم قادة الولايات المتحدة ، وأعقب ذلك أنتاج الطائرات المخصصة للتجسس والتى تعمل بدون طيار ، ثم الإنطلاق إلى آفاق الفضاء الرحبة وأستخدام الأقمار الصناعية فى القيام العمليات التجسس ، وكان للإتحاد السوڤيتى باع طويل فى هذا المضمار مما شكل تهديداً خطيراً للأمن القومى الأمريكى ، وتم إنفاق مئات المليارات من الدولارات للوصول إلى أسرار صناعات الأقمار الصناعية والسفن والصواريخ الفضائية فى الإتحاد السوڤيتى .

ولم يتوقف الأمر عند حد أستغلال الفضاء الشاسع فى القيام بعمليات التجسس والتنصت ، بل أن المحيطات والبحار كانت مسرحاً أيضاً لتلك العمليات !! من خلال سفن التجسس المزودة بأحدث وأدق أجهزة التنصت والتصوير ، فيمكنها التقاط ذبذبات أجهزة الإرسال لدى الدولة المعادية ، والتقاط الإشارات الشفرية وتحليلها وفك رموزها من خلال خبراء بارعون فى فك الشفرات مهما كانت صعوبتها .

وهكذا نرى أن الحديث عن صراع المخابرات سوف يجرنا بالضرورة للخوض فى الحروب الخفية والصراعات الإستراتيچية بين الدول الكبرى أبان القرن العشرين ، وهذا لا يعنى أن عمل المخابرات فى هذه الدول قد توقف أو لم تعد له ذات الأهمية ، بل أن أهميته ما زالت قائمة ولكن أختلفت السبل والأهداف ، وتحولت الصراعات بين الدول فى الغالب إلى صراعات على الأسواق وحصص التجارة وأنتاج تقنيات التكنولوچيا الحديثة ، والمنتجات واسعة الإنتشار ، وهذا يتطلب نوعيات مختلفة من التجسس والجواسيس !!

وفى نفس الوقت لم يعد الصراع قائماً بين الدول المتعادية فقط ، بل أنك قد تجد فضيحة تجسس بين دولتين صديقتين .. حليفتين ، كما حدث عندما ضبط جاسوس تابع المخابرات الإسرائيلية يتجسس على أخطر أسرار الولايات المتحدة الأمريكية رغم الصداقة القوية والتحالف الإستراتيجى الوثيق بين الدولتين !! كما أن معظم دول العالم تحاول النفاذ إلى أسرار التكنولوچيا الأمريكية ، والعكس صحيح أيضاً .. فالمخابرات الأمريكية تعمل بكل جهدها للوصول إلى تكنولوچيا الصناعات التى تتفوق فيها بعض الدول .. كاليابان والمانيا والصين مثلاً ، وقد سمعنا الكثير عن عمليات التجسس بين الولايات المتحدة والصين فيما يتعلق بتكنولوچيا الصناعات المدنية والأجهزة الإلكترونية .

ومن خلال رصدنا ومطالعاتنا لعمليات التجسس والصراعات الدامية بين أجهزة المخابرات العالمية ، يمكننا القول أن المخابرات السوفيتة K.G.B وكانت تتمتع بمزايا كبيرة لا تملكها غيرها من الدول ، كما أنها تعد مدرسة مستقلة بذاتها وفى أساليبها عن مختلف أجهزة المخابرات ، كما أنها قامت بتشغيل واجتذاب آلاف العملاء الذين يتفانون فى خدمة الشيوعية ومنهم من شغلوا أخطر المناصب فى الدول المعادية ، وإن الكثيرين تقدموا متطوعين للعمل تحت إمرة الـ K.G.B !!

أنها رحلة مثيرة وشيقة للغاية نخوض فيها خلال الدهاليز السرية ونقتحم عالم الغموض والأسرار لأحد أعتى وأعرق أجهزة المخابرات فى العالم .. المخابرات السوفيتة والتى عرفها العالم بأسم K.G.B .

عمرو يوسف

الفصل الأول

قلعة الجواسيس

- مئات السنين فى العمل السرى .
- الصراعات الأجتماعية الدامية .
- السجن والزعماء
- الصراع العقائدى
- المخابرات الروسية القديمة
- جهاز الأوتشرانا
- لجنة الطوارى
- مصنع الجواسيس
- فرق الموت
- الإغتيال

مئات السنين من العمل السرى

فى بداية حديثنا عن المخابرات السوفيتة والجواسيس السوفيت وعن العمليات السرية لهذا الجهاز ، لابد وأن نذكر كيف بدأت المخابرات عملها ثم صارت من أهم وأقوى أجهزة المخابرات فى العالم .. أن هذا لم يحدث بالمصادفة ولكن هناك عوامل هامة كانت وراء هذا التفوق ، كما أن الظروف التى عاشتها روسيا والمناطق المحيطة بها كانت من أهم تلك العوامل والأسباب .

فمن العوامل الجغرافية أن معظم الأراضى الروسية تقع فى مناطق شديدة البرودة ، وتتعرض لشتاء طويل قارس تكاد تنعدم فيه مظاهر الحياة تماماً ، ومنذ العصور القديمة كانت هناك رغبة ملحة لدى الروس فى احتلال أراض جديدة تمثل أمتداداً حيوياً لدولتهم تجاه الغرب والجنوب ، حتى يمكنهم الوصول للأجواء الأكثر دفئاً والمياه الدافئة التى تسمح لسفنهم بالتحرك دون خوف من الجليد المخيف ، وذلك بالإضافة إلى وجود رغبة شديدة لدى العديد من الأعراق والشعوب المكونة لدولة روسيا فى حكم غيرهم من الشعوب ووضعهم تحت السيطرة الروسية ، وهى رغبة راودت العديد والعديد من الزعماء والشعوب قديماً وحديثاً، وأوردت الكثيرين منهم موارد التهلكة أمثال الإسكندر الأكبر المقدونيين .. جنكيز خان والمغول .. اتيلا والهون - نابليون والفرنسيين .. هتلر وألمانيا النازية .. والأمثلة كثيرة للغاية على تسلط رغبة الإستعلاء والتفوق لدى الشعوب والقادة .. تلك الرغبة التى تجعلهم يؤمنون بأهمية سيطرتهم على باقى الشعوب ، وأن هذا حق أصيل من حقوقهم لا جدال فيه !!

ولحكم الشعوب والسيطرة التامة عليها لا تكفى العسكرية والجيوش والأساطيل والمدافع والسفن .. بل لابد من أستخدام عامل هام وأساسى وهو .. الجواسيس.. فلم يعرف العالم أجهزة المخابرات المتقدمة بشكلها

الحالى إلا مع بدايات القرن العشرين ، وإن كانت قد سبقتها أرهاصات لأجهزة شبيهة بالمخابرات كما سنرى بعد قليل.. كانت البداية هى أستخدام الجواسيس لمعرفة مدى أستعدادت الخصم من النواحى العسكرية والإجتماعية والتعبوية للقتال ، ومدى قوة الأسلحة ، وهل يفكر القادة فى البدء بالهجوم أم أنهم فى أنتظار تقدم الأعداء ناحيتهم ، وغير ذلك من المعلومات الأساسية اللازمة للغزو ، كما كانت هناك مهام أخرى أكثر أهمية من جمع المعلومات ، فكان بعض النشطاء .. الأذكياء من الجواسيس يعملون على تأسيس مراكز للتجسس بداخل أرض العدو ، يجمعون فيها المناوئين للسلطة الحاكمة ، ويشترون ضعاف النفوس بالمال من أجل أستخدامهم فى تحقيق أغراضهم والقيام ببعض المهام الخطيرة مثل نشر الدعايات الخطيرة والمدمرة بين الشعوب مما يضعف روحهم المعنوية ويجعلهم مؤهلين للفشل والهزيمة بمجرد ظهور قوات العدو .

ويعتبر المغول هم أساتذة هذا اللون من الحرب النفسية - إن جازلنا أستخدام هذا التعبير بالنسبة لتلك الحقبة - فقد كانوا يبثون عملائهم بين الجمهور فى تلك الدولة المستهدفة لينشروا الأكاذيب ويهولون من قوة وبأس المغول وأنهم جيوش لا تقهر ، وما من جيش حاربهم إلا كتب عليه الدمار التام ، وقد تعاظمت أسطورة جيش المغول الذى لا يقهر حتى رسخت فى الأذهان ووضعها أهل ذلك الزمان بين الحقائق المسلم بها حتى قيض الله لهم بطلاً مسلماً فذاً وجيشاً لا يعرف رجاله الخوف فهزموا المغول شر هزيمة وقضوا على أسطورتهم الكاذبة .. أنه البطل سيف الدين قطز وجيوشه من مصر وسوريا والشام .

لقد كان للروس صولات وجولات بداخل أراضى الدول المحيطة بهم تمهيداً لغزوهم والإستيلاء على أراضيهم ، ودائماً كان الجواسيس الروس وجود فى بلاط الأمراء والملوك فى تلك الدول تحت دعاوى المهام الدبلوماسية والتبادل

التجارى ، ومن خلال هذه المهام كان يتم تنفيذ سياسات الدولة فى روسيا ، وهى أعمال تتطابق مع ما نعرفه اليوم من أعمال المخابرات ، مع تغير الظروف والأحوال بالطبع .

نوع آخر وهام للغاية من أعمال التجسس وهى العمليات التخريبية فى الدولة المعادية سواء وقت السلم أم فى أوقات الحرب ، فقد يتم تكليف العملاء بضرب أهداف منتقاة أو القيام بعمليات تستهدف مؤخرة الجيوش المحاربة مما يحدث نوعاً من الذعر والإضطراب وانعدام الثقة بين صفوف الأعداء ، وغالباً ما يتم أنتقاء عناصر تتمتع بمزايا ومؤهلات خاصة وغير عادية للقيام بهذه العمليات الصعبة ، والتى تختلف عن العمليات الإنتحارية أو الفدائية ، فهى عمليات الغرض الأول منها الدعايا وتحطيم الروح المعنوية للخصم .

أذن فقد كان العامل الأول لوجود الجواسيس والمخابرات الروسية هو الرغبة العارمة فى التوسع والسيطرة على الشعوب والوصول إلى البحار الدافئة .. وكان هناك عامل هام للغاية لأنتشار أنشطة التجسس فى روسيا على المستوى المحلى وهو .

الصراعات الإجتماعية الدامية

تميزت العصور الوسطى بصفة عامة بالصراعات الدامية بين طبقات الأقطاعيين والنبلاء من ناحية وبين الفلاحين والكادحين من ناحية أخرى ، شهدت دول أوربا ألواناً من هذا الصراع أنعكس على الأحداث فيها ، أما فى روسيا فقد كان الصراع الإجتماعى فيها رهيباً خاصة بين طبقة الأقطاعيين السادة أصحاب الأقطاعيات الشاسعة من الأراضى ، والتى يملكونها بما عليها من موارد وحيوانات وزروع وثماو.. بشر !! والطرف الثانى من الصراع كانوا هم الفلاحين المستعبدين ، وتحت وطأة الظلم

الشديد ظهرت الكثير من الحركات التى تنادى بتحرير الفلاحين والأجراء ومنحهم حقوقهم المشروعة ، وبمرور السنين وزيادة حدة الصراع ظهرت بعض الجمعيات السرية التى تتصدى لمحاربة السادة الأقطاعيين والإنتقام منهم بأسم الفلاحين المقهورين ، وكانت تلك البدايات الأولى لانبعاث حركات الإصلاح والإشتراكية ثم فيما بعد الشيوعية والتى وجدت فى روسيا أرضاً خصبة للنمو والإنطلاق نظراً لما كان بها من ظلم أجتماعى فادح ، ومعاناة رهيبة فاقت كل حد .

ولما كان الأقطاعيين هم أصحاب المال والنفوذ والجاه ، فقد كان الحكام فى أمس الحاجة إليهم وإلى أموالهم ونفوذهم للسيطرة على البلاد الشاسعة المساحة الممتدة الحدود ، ولما كانت تلك الحركات الثورية والجمعيات السرية تمثل للحكام وللأقطاعيين معاول هدم لدولتهم وتهديداً خطيراً لسلطانهم ، فقد تم اللجوء إلى السلاح المخيف للوصول إلى أسرارهم .. وهو سلاح التجسس .. أستخدم القياصرة الروس والحكومات والأقطاعيين العشرات من الجواسيس البارعين سواء من الرجال أم النساء للوصول إلى مقار زعماء تلك الجمعيات الثورية السرية ، وفى كثير من الحالات نجح الجواسيس فى مهامهم وأرشدوا السلطات إلى رؤوس الثوار الذين لقوا نهايات بشعة وتعذيباً رهيباً عرف به الحكام الروس منذ القدم ، قبل أن يقتلوا شر قتلة .

ومن أهم عوامل أنتشار الجاسوسية على المستوى المحلى فى روسيا هو المعاناة الشديدة تحت وطأة الفقر والعوز والحاجة ، مما دفع بالكثيرين للتجسس على أهلهم ذويهم وأسرهم من أجل حفنة من المال تكفى بالكاد لشراء ما يسد الرمق من الطعام ، وقد فتحت أبواب السجون على مصارعها لتستقبل عشرات الآلاف من المتهمين بالعداء للدولة والخيانة والعمالة ، وغيرها من التهم الفضفاضة والكفيلة بإلقاء صاحبها فى السجن لأجل غير

مسمى .. هذا إذا كتبت له الحياة ، ولذلك كانت الحياة فى روسيا حافلة بعوامل القلق والخوف ، وكان هناك جواسيس من كل نوع ولون ، والكثير منهم على أتم أستعداد للعمل داخل روسيا وخارجها ، ولذلك وجد جهاز أو لجنة أمن الدولة الروس والمعروف أختصاراً بالأحرف K.G.B مدداً لا ينفذ من الجواسيس والعملاء .. ويعد أتساع روسيا وضخامة الرقعة التى تشغلها على الخريطة ، ووجود عشرات القوميات الواقعة تحت سيطرة الدولة الروسية ، من أهم العوامل التى خلفت أسباب القلق والتوتر والثورة بداخل البلاد .

السجن والزعماء

والمتأمل فى تاريخ الزعماء الروس خلال العصر الحديث يجد أن معظمهم قد تعرضوا للمطاردة من قبل السلطات فى روسيا القيصرية ، وألقى بهم فى غياهب السجون لفترات طويلة ، كما تعرض كثيرون منهم للنفى فى أصقاع سيبيريا الرهيبة ولقوا أشد ألوان العذاب البدنى والحرمان وذاقوا مرارة الجوع والألم والضغوط التى لا يحتملها بشر ، ومن نجا منهم من الموت تعلم فنون حبك المؤامرات وأصول العمل السرى وأسخدام الجواسيس ضد الحكومة وتنظيماتها ، فكان الصراع بين الطرفين هو صراع حياة ووجود ، وقد يعنى الفشل أو التعرض للأختراق الموت بلا رحمة .

ومن الزعماء الروس الثوريين الذين تعرضوا للسجن والنفى والتعذيب الزعيم جوزيف ستالين ، الذى بدأت السلطات القيصرية فى مطاردته وهو وما يزال فى بدايات مرحلة الشباب حيث تعرض للسجن لسنوات طويلة ، وقد نجح فى الهرب من السجن وأنضم للجماعات الثورية السرية والمناوئة للحكومة القيصرية وأشترك فى محاولات أغتيال سياسية ، وألقى القبض عليه مراراً ونفى إلى سيبيريا وكان يهرب من السجن ومن المنفى بوسائل عجيبة .. وتعلم خلال عمليات المطاردة المتواصلة ألواناً من العمل السرى

وتشبعت نفسه بالمؤامرات وبالخوف من الجواسيس خاصة وأنه عرف بالمصادفة أن من أرشد إليه البوليس فى إحدى المرات ، كان هو أقرب أصدقائه ورفيقه فى العمل السرى !! وأنعكس كل ذلك على أفعاله عقب أن تولى رئاسة الإتحاد السوفيتى فى عام ١٩٢٤ ، حيث تحولت الدولة إلى معتقل رهيب حافل بألوان القهر والتجسس والخوف والإرهاب الفكرى والعقلى ، حيث كان يتم إعدام شخص ما لمجرد تهمة من مجهول تصمه بالخيانة أو العمالة ، كما تعرض الملايين للسجن والنفى ، وأستخدمت المخابرات السوفيتة عشرات الآلاف من العملاء بالداخل لتعقب المناوئين لها .

وتعرض معظم زعماء الثورة الروس للسجن بالإضافة إلى ستالين مثل لينين وبريا رئيس المخابرات الرهيب الذى يثير أسمه الخوف والرعب فى النفوس ، وما زال يضرب به المثل فى العنف والقسوة وأنعدام الرحمة ، وكان من نتيجة ذلك أن كبار الزعماء كانوا يتجسسون على بعضهم البعض ويخشى بعضهم بعضاً ، وغالباً ما ينتهز أحدهم فرصة ضعف غيره أو غفلته ويطعنه من الخلف يقصيه بعيداً عن مقاعد القيادة لكى لا ينافسه الآن أو مستقبلاً ، فعل هذا ستالين مع كبار (المناضلين) و(الرفاق) ليخلو له الجو ، وكان من أبرز أفعاله فى هذا الصدد الكيد (للرفيق) الشيوعى الكبير ليون تروتسكى ، والذى كان يسبقه بمراحل فى سلم القيادة والقرب من القائد الأول للثورة لينين ، ولكن ستالين نجح فى إقصاء تروتسكى عن البلاد بتدبير مؤامرة محكمة لوصمه بالخيانة والعمالة ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل ظل يتعقبه عبر قارات العالم كما سنرى بعد قليل .

وهكذا فإن المخابرات الروسية نشأت فى بلاد يحفل تاريخها بالصراعات الدامية والمؤامرات والثورات والإضطرابات والخيانات والجاسوسية والرغبة فى السيطرة على الشعوب والدول المجاورة بالإضافة إلى ذلك كان هناك

عامل هام للغاية وهو الصراع العقائدى .

الصراع العقائدى

تحدثنا عن تلك العوامل التى ساعدت على أنتشار حركات التجسس وأعمال المراقبة والتعقب من قبل الدولة ومن قبل الحركات الثورية والمناوئة لها ، وكان معظم النشاط المتعلق بهذه العوامل مرتبطاً بالداخل أكثر من أرتباطه بالعالم الخارجى وبالدول الأخرى ، فهو فى مجمله صراع على السلطة وسعياً وراء إرساء أسس وقواعد مخالفة لما ساد البلاد خلال عقود من الظلم والقهر والإضطهاد ، ولكن مع نهاية القرن التاسع عشر ظهر عامل هام للغاية أكسب الحركات الثورية أهمية وجاذبية وبريقاً .. ذلك هو الفكرالشيوعى والدعوة إلى الثورة ضد الظلم وضد إضطهاد الرأسماليين والأقطاعيين ، ولما كان السواد الأعظم من الشعب الروسى قد قاسى طويلاً من الإقطاع ومن الظلم والقهر ، ولما كانت الثورة الصناعية قد أمتدت إلى روسيا وأدت إلى أستغلال عشرات الآلاف من العمال فى أعمال المناجم والمصانع والعمل تحت ظروف لا إنسانية ، فقد إنضمت جموع غفيرة من الفلاحين والعمال الروس إلى الحركات الثورية الشيوعية والإشتراكية هرباً من ظلم الإقطاع والإستغلال ، وأملاً فى حياة توفر لهم الحد الأدنى من الكرامة الإنسانية .

ولعل هذا هو سبب نجاح الثورة الشيوعية فى روسيا وإنطلاق الحركات الشيوعية عبر العالم ، وكفاح الكثيرين من أجل نشر مبادئها وإرساء دعائمها فى كل مكان ، وهكذا نشأ الصراع الدولى الرهيب بين الإتحاد السوفيتى والذى تكون عقب نجاح روسيا فى ضم العديد من الدول المجاورة إليها تحت أسم الإتحاد السوفيتى ، وكان للنجاح الذى حققته الثورة الشيوعية فى روسيا ، وحكم الشيوعين للبلاد منذ عام ١٩١٧ ، وإنطلاق

الأفكار الشيوعية إلى كل أنحاء العالم ، كان لذلك صدى هائلاً فى العديد من الدول خاصة الدول الغربية بزعامة الولايات المتحدة ، لقد نشأ فى تلك الدول ما يمكن أن نطلق عليه (عقدة الشيوعية) أو (فوبيا الشيوعية) كان الزعماء يطلقون التحذيرات التى تخوف شعوبهم من غول الشيوعية ، تلك النظرية التى تقضى على إنسانية الإنسان وتحوله إلى مجرد ترس عامل فى ماكينة الدولة البالغة الضخامة ، بلا شعور ولا طموح ولا أمل فى غد أفضل ، بينما أستند الشيوعيين فى نجاحهم وفى إنطلاقهم للتأثير على المزيد من الشعوب إلى مظالم الرأسمالية وقهر الإمبريالية للشعوب تحت مسميات براقة كالديمقراطية والحرية ، بينما هى فى الحقيقة تعمل أستغلال كل ثرواتها حتى أخر ذرة فيها ، وتحطيم إرادتهم ليصبحوا مجرد دمى متحركة تأتمر بأمر جلاديها الذين لا يعرفون الرحمة .

وكان صراع عقائدى رهيب أستند إلى مجموعة من الحقائق والأكاذيب والإدعاءات من كلا الطرفين ، والغرض النهائى لكليهما هو السيطرة على أكبر عدد من الشعوب وأستغلال كافة الثروات لخدمة شعوبهم ليس إلا ، وكان لهذا الصراع الدور الأعظم فى صراع الجاسوسية الرهيب بين الغرب والشرق كما سنرى بعد قليل ، كل فريق يود لو يحصل على أدق أسرار الأخر وخاصة أسرار التسلح وحقيقة قوة الجيوش والأساطيل والإستعدادات العسكرية لمواجهة الأخر ، وكما ذكرنا فقد كان الفضاء والبحار وقارات العالم جميعاً مسرحاً واسعاً لعمليات التجسس والتجسس المضاد ، كما كانت هناك حرباً هائلة على أجهزة الإعلام المختلفة بالتنديد بالآخر ، والدعايا إلى الأهداف والعقائد التى تحارب من أجلها الجهة المعينة..

تميز جواسيس الأتحاد السوفيتي سواء من المواطنين السوفيت أو من المؤمنين بالمبادىء الشيوعية ، بالإخلاص والتفانى في خدمة الأتحاد السوفيتي ، وقد مكنت هذه الميزة المخابرات السوفيتية من الوصول إلى أدق وأخطرالأسرار لدى الغرب وخاصة آسرار القنابل النووية والصواريخ

والأسلحة الأستراتيجية ، وقد تصاعدت حدة هذا الصراع الرهيب تدريجياً في أعقاب الحرب العالمية الثانية وهزيمة ألمانيا النازية ، والتي كانت تعد بمثابة العدو المشترك الشيوعيين والغربيين الحلفاء ، وعقب ذلك أعلن الحلفاء الغربيون أن عدوهم الأكبر هو الإتحاد السوفيتي زعيم الشيوعية .
وقبل أن نستطرد في الحديث عن هذا الصراع الطويل والممتد عبرعشرات السنين ، نعود بضع مئات من السنين ونقلب في صفحات أجهزة المخابرات الروسية القديمة وكيف كانت ممارساتها البشعة ترتكب في حق أبناء الشعب الروسي .

المخابرات الروسية القديمة

كان أول ذكر للمخابرات في دولة روسيا خلال العصور الحديثة ، هو ما أطلق عليه جهاز الأوبريتشنينا ذو السمعة السيئة والممارسات اللا إنسانية في حق أبناء الشعب الروسي ، كان الدوق إيفان أحد النبلاء الروس العظام يتميز بطموحاته الكبيرة وتطلعاته نحو عرش روسيا ذاته ، وفي عام ١٥٦٥ كان إيفان دوقاً لموسكو ، ومن أجل إحكام سيطرته على المدينة الضخمة ، ولردع كل من تسول له نفسه مطاولته في جبروته وسلطانه ، هداه تفكيره لإنشاء جهاز للمخابرات يعمل تحت إمرته .. أطلق على هذا الجهاز العجيب جهاز الأوبريتشنينا .. كان الجهاز مكوناً من ستة آلاف رجل من الأشداء يرتدون زياً أسود يلقي الرعب في القلوب ، كما كانوا يستخدمون في تنقلاتهم خيولاً سوداء أيضاً !!

والعجيب في زي هؤلاء الرجال ذوي السخنات المخيفة هو سروج خيولهم كان مطرزاً على هذه السروج رسوماً تمثل كلباً ومكنسة !! وكان هذا يرمز إلى أحتقار الخونة والعمل على إزالتهم من على وجه الأرض بمختلف الطرق والوسائل ، وقد أنطبعت شخصية إيفان عليهم فأصبحوا يتصرفون مثله

تماماً فى عنفه وجبروته وقوته المتناهية وقلبه الذى لا تعرف الرحمة طريقها إليه .. وراح رجال الجهاز الرهيب يتصرفون كالوحوش الضارية التى تنشب مخالبها فى جسد فرائسها بلا رحمة .. كما أنهم تمتعوا بحصانة كاملة وسلطات غير محدودة .. تخلص إيفان من كل أعدائه من النبلاء وملاك الأراضى بواسطة هذا الجهاز المخيف بحجة أنهم من الخونة ، وهى الحجة الخالدة التى أستند عليها معظم الحكام القساة فى التخلص من أعدائهم ومعارضيهم .. تمكن إيفان الملقب بالرهيب من إعدام معارضيه أو نفيهم إلى أصقاع نائية بواسطة جهازه المخيف ، وبالإضافة إلى ذلك قام بمصادرة أموالهم والإستيلاء على أملاكهم وأراضيهم الشاسعة وشرد أهلهم حتى لا يثأر منه أحدهم إذا تمكن من ذلك يوماً ما !! ولم يكن يحكم على أعدائه بالنفى لفترات محدودة ، بل أنه كان يحكم بالنفى لمدى الحياة .. حتى يقضى الضحية نحبه .

تعاظم نفوذ الجهاز الرهيب يوماً بعد يوم حتى وصلت سمعته السيئة إلى أسماع الروس فى أنحاء البلاد ، وكان مجرد ذكر أسمه يصيبهم بالفزع والرعب .. فمما يذكر من فظائع جهاز الأوبريتشنينا أن رجاله قاموا بقتل معظم سكان مدينة نوفجورود المنكوبة ذبحاً خلال خمسة أسابيع دامية وذلك فى عام ١٥٧٠ ، وظل الجهاز يمارس سلطاته وفظائعه ومذابحه لمدة سبع سنوات سوداء حافلة بالفظائع والأهوال الدامية وذلك منذ عام ١٥٦٥ حتى عام ١٥٧٢ حينما شعر إيفان الرهيب بمدى خطورة جهاز مخابراته الأسود عليه هو شخصياً ، فلم يعد هناك ما يردع رجاله عن فعل ما يريدون ، وأصبحوا كالوحوش المفترسة التى تبدو متعطشة دوماً للدماء ولا يقف أمامها عائق ، وأستغل خبرته فى البطش بأعدائه والتنكيل بهم ، فى التخلص من وحوشه السوداء ومصادرة أملاكهم وتصفية بعضهم ليكونوا عبرة للباقين ، ثم أعلن عن تصفية الجهاز المخيف سنة ١٥٧٢ ، والمعروف أن إيفان قد أعتلى عرش روسيا القيصرية ولقب بإيڤان الرابع أو إيڤان الرهيب

وتواصلت أعماله اللاأنسانية فى حق الشعوب المجاورة .

وقد أقترن ذكر أسم المخابرات فى روسيا بالرعب والفزع والدماء والممارسات اللاانسانية .

جهاز الاوتشرانا

كان أول ظهور لجهاز مخابرات بمعناه الحديث فى القرن التاسع عشر ، عندما قام قيصر روسيا الكسندر الثانى بتأسيس جهاز "الاوتشرانا" كهيئة للبوليس السياسى تنصب جهودها غالباً على النواحى الداخلية ومراقبة المنشقين على السلطة ، ولكنه لم يكن جهازاً قوياً متماسكاً ، بل عصفت به الأهواء وأخترقه الأعداء ، وفى نهاية القرن التاسع عشر أشتدت قوته وبلغ عدد عملائه حوالى مائة ألف عميل يمارسون عمليات التجسس فى طول البلاد وعرضها ، بالإضافة إلى المهام الخارجية فى مختلف بلدان العالم ، فى بداية حقيقية لعمل المخابرات الفعلى .

وقد برع عدد من العملاء الروس والتابعين لجهاز الاوتشرانا وقاموا بمهام ناجحة فى الخارج والداخل لحساب الحكومات القيصرية ، ولكن المد الثورى كان قد إمتد إلى كل أنحاء روسيا ، وتعاظم عدد الثوارالعاملين على قلب نظام الحكم القيصرى وأصبحت التنظيمات الشيوعية البلشفية والتنظيمات الإشتراكية أشد قوة وأكثر خطورة من أى وقت مضى ، كان لجهاز الاوتشرانا دور كبير فى تدبير العديد من المذابح فى أنحاء روسيا لأعداء الحكومة وإن كان ذلك بدرجة أقل مما فعله جهاز الاوبريتشنينا الرهيب ، وكان الثوار يعلمون جيداً أن عليهم التعامل مع الجهاز الخطير حتى لا يجهض أحلامهم ويدمر تنظيماتهم ، وبالفعل نجحوا فى أختراق الجهاز بسهولة ونفذوا إلى أسراره .

كانت القوة المناوئة لقيصر روسيا تكمن فى المهاجرين والمبعدين عن روسيا ، والسواد الأعظم منهم كان ينتمى الشيوعيين ، كما كانت باريس هى المدينة التى تضم أكبر تجمع من هؤلاء المهاجرين ، ولذلك تم تأسيس مكتب للاوتشرانا فى باريس لمراقبة الثوار والعمل على إحباط تدابيرهم ضد الدولة الروسية ، كما تم تأسيس مكاتب أخرى فى روما ولندن وبرلين ، وجرت عمليات تجسس واسعة النطاق فى أوربا وفى داخل روسيا ذاتها لتعقب الثوار، وحقق عملاء الاوتشرانا بعض النجاح ، وتم الإيقاع بعدد من الثوريين والتخلص منهم بالقتل أو بالنفى إلى سيبيريا ، كما تم توظيف عشرات الآلاف من العاملين بالمطاعم والفنادق والعمال والباعة الجائلين للمساعدة فى التجسس على الثوار .

ومن جانبهم أستطاع الثوار أختراق الاوتشرانا ومكنهم ذلك من إنقاذ الكثيرون منهم من الأغتيال أو النفى والتشريد ، وعندما نجحت الثورة الشيوعية وتمكنت من الإستيلاء على الحكم فى أكتوبر من عام ١٩١٧ ثم ألقاء القبض على عدد كبير من رجال وعملاء الاوتشرانا وإعدامهم ، خاصة أولئك الذين ساهموا فى ضرب الثوار والتنكيل بهم .. والعجيب أنه مازالت هناك الكثير من أسرار تلك المرحلة فى طى الخفاء ، رغم مرور عشرات السنين على وقوعها وأنتفاء عوامل السرية عنها ، ويعود ذلك إلى الإفراط فى العمل السرى وفى الإستخفاء .

لجنة الطوارى

تصاعد إلى حد كبير نشاط المخابرات فى روسيا عقب قيام الثورة فى أكتوبر من عام ١٩١٧ ، فقد أصبح الحكام السابقون وحلفائهم من الاقطاعيين وأعداء الشيوعية والإشتراكية ..أصبحوا جميعاً بعيداً عن لعبة السلطة وأخذوا يعملون على هدم الدولة الجديدة والكيد لها بشتى الطرق

والوسائل ، وكان أخطر ما يمكن حدوثة فى تلك الأونة هو حدوث حرب أهلية تدمر البلاد ولا تبقى ولا تذر ، فى البداية كانت المؤامرة لا تنقطع ، يدبرها محترفون فى أعمال الجاسوسية والمخابرات والتآمر ، كما عمد المنشقون إلى دفع العمال إلى الإضراب عن العمل ، وحث الجماهير على العصيان المدنى للإعراب عن رفضهم لنظام الحكم الجديد ، ولجأوا إلى أستخدام الأسلوب الذى برع فيه الشيوعيين دائماً وهو التخريب لإحداث أكبر قدر من البلبلة والإضطراب فى البلاد .

كان الوضع شديد الخطورة مما يهدد الثورة بالضياع فى خضم الفوضى والتخريب والمؤامرات ، ولأن معظم رجال الثورة كانوا من خريجى السجون القيصرية والمطاردين فى كل مكان ، فقد انتبهوا لما يحدث بسرعة وقرروا النفاذ إلى أعماق التنظيمات المعادية من خلال تأسيس ما أطلق عليه لجنة الطوارئ لعموم روسيا .. كانت المهمة الأساسية لهذه المنظمة هى الجاسوسية بمعناها الواسع ، والعمل على أختراق صفوف القوى المعادية للثورة ووقف أعمال التخريب ومنع المؤامرات ضد الدولة .

وقد تبين للجواسيس الروس حقائق خطيرة ، فقد كان وراء عمليات التخريب والتآمر أجهزة مخابرات غربية قوية ،عمدت هذه الأجهزة إلى أستقطاب المنشقين الروس والمهاجرين إليها وتمويلهم وأعداد الخطط اللازمة لهم لهدم الثورة، وقد تم أختراق عدد كبير من هذه التنظيمات المرتبطة بالمخابرات المعادية وإحباط عملياتها والقبض على عملائها من الروس الذين آدلوا بإعترافات تفصيلية لعملياتهم التخريبية ..كانت هناك عشرات المؤامرات والتنظمات التى تهدف إلى آغتيال فلاديمير لينين زعيم الثورة وكبار قادة الجيش الأحمر، وكذا تخريب أهم المنشآت والمواقع لإحداث أضطرابات داخلية واسعة تمهد السبل لإسقاط الحكم وللتدخل الأجنبى فى البلاد .

كان النضال شديداً بين عملاء لجنة الطوارئ وبين خلايا التنظمات

السرية وعملائها المحترفين .. وكانت الفترة بين عامى ١٩١٨ و ١٩٢٠ حافلة بالمواجهات الدامية والمطاردات المثيرة عبر دول العالم لتعقب أعداء الثورة و القضاء عليهم ، وقد تطورت أجهزة مكافحة الأختراق والتخريب إلى حد كبير خلال السنوات التالية ، وظهرت تنظيمات أكثر فاعلية وتخصصاً مثل المخابرات المضادة التى تهدف إلى حماية البلاد من اختراق عملاء المخابرات الأجنبية أو قيامهم بالعمليات التخريبية ، وكذا كانت هناك إدارة لمكافحة الحرب النفسية والتى قادتها دائماً المخابرات الأمريكية ، بالإضافة إلى ذلك كانت هناك أدارة تعمل فى سرية بالغة على تعقب عملاء المخابرات الأجنبية والذين يعملون غالباً فى السفارات والقنصليات تحت ستار وظائف خادعة دبلوماسية أو عسكرية أو ثقافية أو تجارية .

وكما هو الحال فى التنظمات السابقة للمخابرات فى روسيا والتى تحدثنا عنها، فقد تصاعدت سلطات المخابرات وتحولت إلى آداة لجلد الشعب وارهابه بما لأعضائها من سلطات واسعة وحصانة غير محدودة ، وأعدم الكثيرون بسبب وشايات كاذبة وتهم غير مؤكدة ، وسجن الآلاف بدون محاكمة وبدون أى سند قانونى.. هذا على المستوى الداخلى، أما على المستوى الخارجى فقد كانت النتائج كما هى الحالة دائمامزيجاً من النجاح والفشل .. عملاء ينجحون فى مهامهم ويعودون سالمين ، وعملاء يتم الإيقاع بهم فيسقطون فى أيدى السلطات فى الدول الأجنبية كما سنرى بعد قليل .

مصنع الجواسيس

للجاسوسية مدارس عريقة تأسست عبر السنين ، وأصبح لها سمات مميزة وأركان أساسية .. من أهم هذه المدارس المدرسة الألمانية والمدرسة الأنجليزية والمدرسة الروسية .. ونظراً للأهمية البالغة للجواسيس في تنفيذ سياسات الدولة والنفاذ إلى أسرار أعدائها، فقد أهتمت روسيا منذ سنوات

طويلة بإعداد الجواسيس إعداداً فريداً كي يضطلعوا بمهامهم الصعبة وهم مؤهلين جيداً، فالجاسوسية دراسة وعلم وفن وخبرة ، والجاسوس ليس مجرد شخص مكلف بمهامة روتينية عليه القيام بها ثم العودة إلى الوطن ، بل أنه دائماً فى مهام خطرة، قد تنبثق عنها مهام أكثر خطورة لم تكن فى الحسبان

وفى روسيا توجد عدة مدارس لإعداد الجواسيس الذين يتم أختيارهم وفق معايير دقيقة وأختبارات شاقة للكشف عن كافة الجوانب الشخصية والنفسية والسلوكية ، وتتميز المدارس الروسية للجاسوسية بأن كل مدرسة تختص بالتجسس على جهة معينة .. فمثلاً توجد مدرسة خاصة بإعداد الجواسيس للتجسس على الولايات المتحدة ، تقع هذه المدرسة على مساحة كبيرة جداً أعدت ببراعة وأتقان شديدين حتى لتبدو وكأنها قطعة من الولايات المتحدة بالفعل ..المبانى ..المحلات.. وسائل المواصلات.. واجهات المطاعم والمحلات .. طبيعة الحياة كل شئ فى هذه المدرسة يعبر عن الحياة فى الولايات المتحدة ، ويتعامل الجواسيس بداخل هذه المدرسة باللغة الإنجليزية وباللكنة الأمريكية حتى يصبحوا مؤهلين جيداً للحياة فى الولايات المتحدة الأمريكية ويمارسون نفس نمط الحياة الموجود فيها .

كما توجد مدارس خاصة بالتجسس على دول أخرى مثل الصين وإنجلترا وألمانيا وغيرها ، وفى هذه المدارس يتلقى الدارس كافة أسرار الجاسوسية وطرق التعامل مع الجهات الخارجية ، وكيفية كتابة الرسائل وإلتقاط الصوروإخفاء الوثائق والتنكر والتخفى وتجنيد العملاء والهروب من المطاردة وغيرها من المهارات الأساسية للجاسوس المحترف ، وقد تخرج فى هذه المدارس عدد كبير من أخطر الجواسيس الروس .

وتميزت عمليات المخابرات الروسية دائماً بالسرية المطلقة والعمل فى الخفاء ، فمن الصعب اكتشاف الآثار التى تدل على ضلوعها فى هذه العمليات ، وخاصة العمليات القذرة المتعلقة بالإغتيالات السياسية وتصفية

الأعداء ، وقد أستعانت المخابرات السوفيتة بفرق للإغتيالات (لإنجاز) تلك المهام ، وجرت الكثير من هذه العمليات فى السنوات الأولى من عمر الثورة ، مع الحرص على الإنكار التام لضلوع الدولة فيها ، رغم أن كل أصابع الأتهام لا تشير إلا إلى الأتحاد السوفيتى كما سنري فى السطور التالية .

فرق الموت

ورثت المخابرات السوفيتة عن الأجهزة السابقة الكثير من الممارسات والأجراءات القاسية ، وكان لطبيعة مرحلة الصراع فى بداية القرن العشرين دور عظيم فى مواصلة هذ الأسلوب الدموى ، وكان أبرز الضحايا أحد أعلام الحكم الشيوعى ومؤسسى الدولة الشيوعية وهو ليون تروتسكى .

كان ليون تروتسكى من أشهر الثوريين البلاشفة منذ حداثته ، عرف عنه الحماس الشديد وأمتلاك مؤهلات الزعامة وقيادة الأخرين وتصديه للدفاع عما يعتقده .. وقد ألقى القبض عليه فى بداية مرحلة شبابه على يد الأجهزة البوليسية القيصرية ، وظل فى صراع دائم مع السلطات ، وأنضم إلى زعيم الشيوعيين فلاديمير لينين ورفاقة الذين قادوا الثورة الشيوعية الحمراء وخاضوا صراعات هائلة مع العديد من القوى المناوئة لهم وعلى رأسها القيصر وجيوشه الإقطاعيين .. كان تروتسكى هو الأقرب إلى الزعيم لينين نظراً لثقافته الواسعة وقدراته الهائلة على التنظيم والقيادة وهذا ما كان يفتقد إليه إلى حد كبير منافسيه على الزعامة چوزيف ستالين ، وإن كان الأخير يتفوق على تروتسكى بقدراته الكبيرة على التآمروالعمل فى الخفاء والتخلص من منافسين بأساليب شيطانية.. وكان لينين لا يميل إلى ستالين بسبب خشونة مسلكه وفظاظته ، وتوقع الجميع خلال مرض الزعيم فلاديمير لينين أن يكون ليون تروتسكى هو خليفته ، فقد تولى قيادة الجيش الأحمر (وهو لقب الجيش السوفيتى) ويعد هذا هو المنصب التالى فى الأهمية

لمنصب رئيس الدولة ، وبالإضافة إلى ذلك تولى مسئوليه الشئون الخارجية للإتحاد السوفيتى .

كان تروتسكى دائماً من المعارضين للسياسات التى ينتهجها لينين ، فقد عارض فى الإنسحاب السوفيتى من الحرب العالمية الأولى ، وتعامل مع الكثيرين من خصومه السياسيين بقسوة بالغة وبطش بعدد كبير منهم ، ورغم ذلك فقد كان يتمتع بشعبية كبيرة بعكس الحال مع خصمه ومنافسه اللدود ستالين ، أما الأخير فقد أخذ يعمل فى صمت ويعد العدة للحظة الحاسمة كى ينقض على مقعد الرئاسة ، وعندما مات الرئيس لينين سنة ١٩٢٤ كان تروتسكى خارج البلاد لسوء حظه ، ووجدها ستالين فرصة رائعة للإجهاز عليه ، اتهمه بالهروب من المسئولية وعدم الإهتمام بمصالح الدولة العليا ، وأستعان فى حربه ضد خصمه القوى بعدد من زعماء الحزب الشيوعى الأقوياء ، وبعد صراع طويل نجح فى حبك المؤامرة وأتهام خصمه بالخيانة وتم نفيه إلى المآتا عاصمة أوزبكستان ، ولكن تروتسكى تمكن بمساعدة أنصاره من الهروب إلى خارج الإتحاد السوفيتى ، وكان عدد أنصاره والمعجبين به والمؤيدين لنهجه الثورى يذدادون يوماً بعد يوم ، خاصة وهم يرونه طريداً مضطداً من قبل خصمه القاسى القلب ستالين الذى عات فى الأرض فساداً .

كان ستالين يشعر بالقلق البالغ من قبل عدوه اللدود تروتسكى ، وقرر أن يتخلص منه مهما كلفه ذلك من جهد ومشقة، لقد أخذ تروتسكى يجوب بلدان العالم ويلقى خطبه النازية التى تلقى أسماعاً مرهفة وتزيد من شعبيته الجارفة وتحط من قدر ستالين ، وخلال تلك السنوات أستدار ستالين لينقض على باقى أعضاء المكتب السياسى للحزب الشيوعى والمؤسسين للدولة الشيوعية، فتخلص منهم جميعاً وتنكر لهم ولما فعلوه معه حتى أصبح هو الزعيم الأوحد .

زار تروتسكى العديد من العواصم العالمية مثل باريس وأسطنبول واوسلو وغيرها وراح يندد بممارسات خصمه ستالين .. ثم أستقر به المقام أخيراً فى مكسيكوسيتى عاصمة المكسيك ، وكان قد تعرض لمطاردات دامية من قبل ستالين ، ولذلك قرر الإبتعاد عنه ، وضعت له السلطات المكسيكية شروطاً قاسية لقبول إقامته بالبلاد وهى عدم العمل بالسياسة وعدم إثارة الجماهير ، ورغم كل ذلك فقد كان عدد أتباعه يذدادون يوماً بعد يوم فى الإتحاد السوفيتى وفى أنحاء العالم مما أثار قلق ستالين وخوفه .. فقد أستولى على مقعد الحكم فوق جثث العشرات ولا يمكنه ترك أهم منافسيه على قيد الحياة ليهدد سلطانه بالزوال ، فماذا يمنعه من تكوين جيش من المنشقين على ستالين ومهاجمة العاصمة موسكو !! إلى هذا الحد كان ستالين يخشى تروتسكى ، وهذا أيضاً سلوك كل ظالم وصل إلى مقعد الحكم عبر طريق ملئ بالدماء والقتلى والظلم .

أصدرت المحكمة حكمها بالإعدام ضد تروتسكى فى عام ١٩٣٦ وذلك بتهمة الخيانة والتآمر ضد الدولة ، وكانت تلك مجرد ركيزة للإرتكاز عليها للتخلص من تروتسكى ، لتشويه صورته أمام محبيه ومؤيديه .. وبدأت المطاردة تتخذ شكلاً آخر، فقد تم أعداد فرق للموت تجوب أنحاء العالم للتخلص من أعداء ستالين وحكومته الشيوعية ، وقد نجح رجال تروتسكى فى حمايته من الكثير من المؤامرات التى تستهدف حياته ، وفى مايو من عام ١٩٤٠ وقعت محاولة هى الأجرأ والأعنف للتخلص من تروتسكى فى منقاة الأختيارى بالمكسيك وكانت إيذاناً بالنهاية .. أقتحم حوالى عشرون رجلاً مسلحاً يرتدون زى الشرطة المكسيكية المنزل الذى يقيم فيه الزعيم ليون تروتسكى مع زوجته ، أخذ الرجال يطلقون النار بكثافة على كل غرف المنزل ثم لاذوا بالفرار وهم واثقين من قتل تروتسكى ولكن العجيب والمثير فى الأمر أن تروتسكى لم يصب بخدش هو أو زوجته ؟! فقد ألقوا بأنفسهم على الأرض وأختبئا أسفل الفراش بمجرد سماعهم صوت أقتحام فرقة الموت

للمنزل !! بالطبع لم تصل تحقيقات البوليس إلى أية معلومات هامة تميط اللثام عن القتلة ، ولكن تروتسكى .. والعالم أجمع .. كانوا يعرفون هوية القتلة .. وبدأ تروتسكى يتحرك بحرص بالغ .

الأغتيال

ومن المؤكد أن ستالين لن يقف فى منتصف الطريق بعد أن بدأه بالفعل وفشلت مخابراته فى أولى المراحل، فلتعقب ذلك خطوة أكثر أتقاناً..تم ألحاق شاب مهذب ومثقف يدعى (فرانك جاكسون) للعمل لدى تروتسكى الذى أعجب بثقافته ونباهته وحاز على ثقته فى وقت قصير رغم حرص تروتسكي البالغ فى التعامل مع الغرباء ، وقد وصل الأعجاب إلى الحد الذى جعله يعين فرانك جاكسون سكرتيراً خاصاً له !!

وإن دل هذا على شاء فإنما يدل على تخطيط وتدبير فى غاية الإتقان من قبل المخابرات الروسية ..وفى أحدى أمسيات شهر أغسطس وبالتحديد فى ٢٠ أغسطس من عام ١٩٤٠ كان تروتسكى جالساً إلى مكتبه مستغرقاً تماماً فى قراءة مقال لفرانك جاكسون فأخرج الأخير من بين طيات ثيابه بلطة حادة وصوب ضربه هائلة إلى جمجمة تروتسكى، كان يظن إنه سيموت فى نفس اللحظة بدون صوت ، ولكن تروتسكى كان قوى البنية، فأطلق صرخة رهيبة وراح يقذف القاتل بكل ما تصل إليه يداه ، وبعد لحظات هرعت إليه زوجته ناتاليا ورجال حرسه الخاص .. نهض تروتسكى متثاقلاً حتى ألقى بنفسه بين يدى زوجته.. نقل إلى المستشفى وظل يصارع الموت لمدة ٢٢ ساعة حتى أسلم الروح فى الحادى والعشرين من أغسطس .

والعجيب أن القاتل فرانك جاكسون ظل صامتاً طوال عشرين عاماً قضاها فى السجن ، ولم يذكر أبداً أسم الجهة التى دفعته لقتل تروتسكى ، وإن كان العالم أجمع يعرف من هى هذه الجهة !!

الفصل الثانى

أختراق المخابرات الغربية

- الأهداف الإستراتيچية .
- فنون الأختراق
- أخطر الجواسيس
- ضحية الطغيان
- الشيوعى الإرستقراطى
- فيلبى والثورة العالمية
- خدعة الثعلب
- خدمات لا تقدر بثمن .
- فيلبى والمخابرات الأمريكية
- علاقات مشبوهة
- الهروب الغامض
- اليهودى الحائر
- الإنتقام المروع

الأهداف الإستراتيجية

بعد أن قويت الدولة السوفيتة وتمكن ستالين من إحكام قبضته على كل نشاط بداخل بلاده، بمعاونة عشرات الآلاف من العملاء والجواسيس ، بدأت المخابرات تهتم بالخارج خاصة وأن الإتحاد السوفيتى خطا بخطوات كبيرة نحو قيادة عشرات الدول وأصبح هو القوة العظمى الثانية فى العالم بعد الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد تغيرت خريطة أوربا وخريطة العالم عقب نهاية الحرب العالمية الثانية .. فأضمحلت قوى عظمى مثل أنجلترا وفرنسا وألمانيا وبزغ فجر قوى جديدة فتية مثل الولايات المتحدة الأمريكية والأتحاد السوفيتى ، وتميزت تلك الدولتين بالثراء وبتعدد موارد الثروة والطاقة مما مهد لهما الطريق لقيادة العديد من الدول ، وكانت التكنولوچيا الأمريكية تسبق الإتحاد السوفيتى بمراحل عديدة ، بل أن هناك بعض المجالات التى بدأ فيها الإتحاد السوفيتى متخلفاً بالمقارنة مع أوروبا والولايات المتحدة .

ولذلك ظهرت حاجة ملحة لدى الإتحاد السوفيتى لسد النقص وتعويض الفارق الهائل بينه وبين منافسيه على الساحة الدولية حتى يتسنى له مطاولتهم ومزاحمتهم ، ولما كانت من أهم أهداف جهاز المخابرات مساعدة الدولة على تنفيذ سياساتها الدخلية والخارجية ، والقيام بالمهام (الخاصة) التى تحقق ذلك ، فقد وضعت المخابرات السوفيتة عدة أهداف إستراتيجية لابد من تنفيذها مهما كلفها ذلك ، وهذه الأهداف هى :

١ - سرقة تصميمات القنبلة الذرية بأى ثمن ، وبأسرع وقت ممكن .. فهى السلاح الهائل المخيف الذى أخضع المارد اليابانى وجعله يجثو على ركبتيه يستجدى الرحمة ، وبدون أمتلاك الأسلحة النووية فلن يكون للإتحاد السوفيتى هيبة على الساحة الدولية ، ويمكن للولايات المتحدة بسهولة أرهابه وهزيمته فى أسرع وقت ممكن .

٢ - الوصول إلى تكنولوچيا الأسلحة المتطورة من دبابات ومركبات

وصواريخ لتحقيق التفوق السوفيتى على الحلفاء الغربين فى هذا المجال . لأن الإتحاد السوفيتى كان يمتلك بالفعل تكنولوچيا متقدمة فى الصواريخ والدبابات .

٣ - الإهتمام الكبير بمجال الطيران خاصة الطائرات النفاثة الفائقة السرعة للحاق بالأمريكيين الذين حققوا طفرات كبرى فى هذا الميدان الهام ، فقد أصبحت الطائرات من أهم أسلحة الحرب وقصف أهداف العدو وحمل القنابل الضخمة بالإضافة إلى التجسس والإستطلاع .

٤ - أختراق مخابرات العدو وأجهزته الأمنية لمعرفة نوايا الدول الغربية تجاه الإتحاد السوفيتى قبل أن يقدم أحد على غزو الأراضى السوفيتية كما فعل أدولف هتلر خلال الحرب العالمية الثانية .

٥ - تحسين صورة المنهج الشيوعى وأجتذاب العالم للشيوعية من خلال الدعايا الجذابة ، والإشادة بمزايا التلبيق الشيوعى من حيث توفيره للعدالة والمساواة والقضاء على الظلم وصراع الطبقات ، وهى الأمراض التى يعانى منها الغرب ودولة الرأسمالية ، ومن جهة أخرى العمل على تجسيد صور السلبيات والعيوب التى تميز النظام الرأسمالى بصفة عامة والولايات المتحدة بصفة خاصة .

٦ - أجتذاب أكبر عدد من الدول الصغيرة والمتحررة من الإستعمار ، فهى بيئة خصبة لنشر الشيوعية والتصدى للأطماع الغربية خاصة بعد ما لقيته هذه الدول من ظلم وأستغلال واضطهاد من قبل المستعمرين الغربين .

٧ - رصد والتصدى لأنشطة أجهزة المخابرات الغربية فى الإتحاد السوفيتى وفى الدول التى تدور فى فلكه ، وهى أنشطة تهدف بدورها للتسلل إلى أسرار الدولة السوفيتية من حيث الأسلحة والتصنيع والعتاد والخطط المستقبلية تجاه دول العالم .

٨ - التجسس على المراكز الصناعية بإعتبارها واحدة من أهم ركائز التفوق والتميز على الدول الأخرى ، فالدولة المتقدمة فى أحد مجالات الصناعة تمتلك ميزة نسبية عن غيرها من الدول ، فمثلاً التفوق فى صناعة المحركات أو السيارات أو القاطرات يتيح للدولة ميزة رائعة سواء فى السلم أم فى الحرب .. ولتنفيذ هذه الأهداف الهامة للغاية كان لابد من الأستعانة بجواسيس على أعلى مستوى سواء للإختراق بأنفسهم ، أو تجنيد العملاء المتازين للقيام بهذه المهمة الشديدة الخطورة .

فنون الأختراق

وقد حقق جواسيس الإتحاد السوفيتى أنتصارات كبيرة على الحلفاء الغربيين خلال الحرب الطويلة التى دارت بينهما وذلك فى مجال أختراق الأجهزة الأمنية وأجهزة المخابرات ، وتميز الجواسيس السوفيت بالمهارة والثبات والإصرار على بلوغ الهدف مهما لقوا من صعاب شديدة ، وقلدوا الغربين فى أسلوبهم الخبيث من حيث أجتذاب اللاجئين والمبعدين إليهم وأغراؤهم بالعمل معهم برغبتهم ، بل أن السوفيت تفوقوا فى هذا الأسلوب أيضاً ، ويرجع ذلك إلى أستخدام الشيوعية كعقيدة يقتنع بها الشخص ويدافع عنها بإرادته لأنه يراها الوسيلة الوحيدة للعدل والمساواة بين البشر !!

وتمثلت فنون الأختراق الروسى للمخابرات الغربية فى أشكال عديدة كلها تهدف إلى خداع الغرب وبث الشائعات والأكاذيب بين الشعوب ، والحصول على أقصى قدر من المعلومات والأسرار ، فقد كشفت أعترافات أحد زعماء المخابرات الأمريكية وهو وليم كولبى عن نجاح هذه الأختراقات بدرجة مذهلة لا تخطر ببال أحد ، ولم يكن الزعماء السوفيت يتخيلونها !!

فمن ألوان هذا الخداع ذهاب عملاء روس إلى مقار المخابرات الأمريكية والغربية ووضع أنفسهم فى خدمتها بحجة النكاية فى السوفيت والأنتقام لما لحق بهم من ذل ومهانة على أيديهم ، ويواكب ذلك تقديم معلومات هامة وحقيقية من أغراض تهم المخابرات الغربية سواء كانت سياسية أم عسكرية أم تجارية أو علمية ، وعندما يتحقق المسئولين بالمخابرات الغربية من صحة هذه المعلومات الهامة يوافقون على إلحاق العملاء السوفيت بالعمل لديهم مع مراقبتهم ، وكان السوفيت شديدوا البراعة فى أكتساب ثقة الغربيين وفى نفس الوقت التجسس عليهم والحصول على معلومات ثمينة ووثائق سرية للغاية، وتجنيد أفراد من العاملين معهم ، وبالفعل تم أكتشاف بعض هذه الحالات ، ولكن .. بعد أن حصلوا على معلومات فى غاية الخطورة .

لون أخر من ألوان الخداع للغرب وهو قيام المخابرات السوفيتية بإرسال وثائق رسمية مزورة بإتقان على أنها من الخارجية الأمريكية ، وهذه الوثائق تحمل معلومات غير صحيحة مما يؤدى إلى تدهور علاقات الولايات المتحدة بهذه الدول ، وقد تم أكتشاف بعض هذه الحالات وأوفدت الخارجية الأمريكية العديد من مبعوثيها لتوضيح جلية الأمر لهذه الدول .

وتأتى الضربات الأكثرإيلاماً للمخابرات الغربية وللغرب بصفة عامة عندما تم تجنيد عدد من أهم أركان المخابرات البريطانية لدى المخابرات السوفيتة ، وكانت تلك واحدة من أكبر الفضائح التى عرفتها بلدان الحلفاء الغربيون والتى هزت الثقة فى مخابراتها وجعلت القائمين على الأمر يرتابون فى كل شخص وفى كل شئ ، ويجعلون هدفهم الأول هو تحصين أجهزة المخابرات لديهم ضد الأختراق السوفيتى وتدريب العاملين على التعامل بحذر مع الأخرين حتى ولو كانوا من مواطنيهم ، وكان ندم المخابرات الغربية عظيماً ولكنه للأسف لم يجد شيئاً .. فقد فات الأوان ووصل العملاء السوفيت إلى أخطر الأصرار على الإطلاق وهى أسرار القنابل النووية والتى

كانت كفيلة بمنح ميزة فريدة للدول الغربية والولايات المتحدة على الأتحاد السوفيتى ، ومن العجيب حقاً أن من بين الجواسيس الذين سرقوا الأسرار القنبلة الذرية لصالح الأتحاد السوفيتى أشخاص غربيون فعلوا ذلك لإقرار السلام العالمى !!

قالوا أنهم أن لم يفعلوا ذلك لتعاظمت قُوة الولايات المتحدة ولتوحشت فى التعامل مع الأمم الأضعف بدون أن تجد من يردعها ، أما أمتلاك الأتحاد السوفيتى لهذه الأسلحة النووية فسوف يكفل للعالم وجود قطب قوى ومكافئ فى القوة للولايات المتحدة مما يحدث نوعاً من التوازن والسلام العالمى !!

أخطر الجواسيس

شهد الصراع السوفيتى..الغربى العديد من ألوان الإثارة والأختراق والنجاح والفشل لكلا الطرفين ، وربما كان أختراق العميل السوفيتى الشهير كيم فيلبى للمخابرات البريطانية هو أحد أعظم أنتصارات المخابرات السوفيتة K.G.B إن لم يكن أعظمها على الأطلاق ، ويرجع ذلك لعدة أسباب وهى :

١ - كان فيلبى شخصاً غير عادٍ على الإطلاق ، فقد شغل مناصب قيادية هامة فى المخابرات البريطانية ، وفى قسم مكافحة التجسس السوفيتى تحديداً ، بل أنه كان مرشحاً للرئاسة المخابرات البريطانية !!

٢ - عمل فيلبى لفترة بالصحافة وكان على دارية واسعة بالأحوال السياسية فى العالم ، ويعد خبيراً فى وسائل الإتصال والتموية وأرسال البرقيات .

٣ - ظل فيلبى يمارس عمله الرسمى لأكثر من عشر سنوات دون أن ينكشف أمره للمخابرات البريطانية ، وأستطاع أنقاذ الإتحاد السوفيتى من

الكثير والكثير من الضربات والمؤامرات ، حيث تمكن من معرفة أدق الأسرار نظراً لموقعه البالغ الحساسية والخطورة .

٤ - كان التوقيت الذى وجد فيه فيلبى بالغ الخطورة حيث واكب الحرب العالمية الثانية وما بعدها ، وهى فترة شهدت توترات دولية وأروبية بالغة ، كما شهدت أخطر تحول فى الفكر الأروبى والأمريكى تجاه عدوهما المشترك فقد كان العدو هو ألمانيا النازية ، وعندما أنهارت ولم تقم لها قائمة عقب الحرب العالمية الثانية ، أتجهت الأنظار على الفور إلى العدو الجديد .. الأتحاد السوفيتى !!

ومن حسن حظ الأخير أن وجد رجل مثل كيم فيلبى مزروعاً فى قلب المخابرات البريطانية ومطلعاً على كافة أسرارها وخططها والتى كان معظمها يدور حول التجسس على الأتحاد السوفيتى بالطبع !!

٥ - نجاح فيلبى فى الهروب بطريقة عجيبة - كما سنرى - دون أن يقع فى أيدى المخابرات الغربية ويضطر للإعتراف بما لديه من أسرار وبما فعله خلال السنوات السابقة ، وما نقله إلى الأتحاد السوفيتى من معلومات ووثائق لا يعلم بها أحد من المخابرات الغربية ، وهذا ما جعلهم فى حيرة وذهول لسنوات طويلة ، فعندما قاموا بفحص ملفات فيلبى وسيرته الذاتية وكافة أوراقه ومستنداته لم يعثروا على ما يوضح حقيقة مسلكه خلال تلك السنوات ، كما أنهم لم يعرفوا متى عمل مع المخابرات السوفيتة .

٦ - براعة فيلبى المنقطعة النظير والهدوء الشديد الذى كان يغلف تحركاته وأعماله كرجل أنجليزى أرستقراطى (چنتلمان) حقيقى لا ترقى إليه الشبهات ، حتى وأن كانت له ميول شيوعية فى وقت سابق من شبابه المبكر .

كل هذه العوامل جعلت من كيم فيلبى جاسوساً منقطع النظير لا مثيل له ولا يستطيع الإتحاد السوفيتى أن يكافئه على خدماته الجليلة ، وفى نفس

الوقت كان أنكشاف أمره للمخابرات البريطانية والغربية يمثل ضربة قاصمة لها ووصمة عار فى جبينها.

أن قصة كيم فيلبي حافلة بالإثارة والغموض والصراع ، وهي تجسد حقيقة الصراع العنيف بين الشرق بزعامة الأتحاد السوفيتي والغرب بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية.. وقد ألهمت قصة فيلبى العديد من الروائيين لنسج روايات تدور حول الجاسوسية والحرب الخفية فى أجواء من الأثارة والغموض ، وإن كانت الحقيقة فى كثير من الأحيان تفوق الخيال من حيث الحبكة والأثارة !!

ضحية الطغيان

تبدأ قصته أخطر الجواسيس السوفيت منذ طفولته المبكرة وطريقة تربيته ، حيث ولد فى مدينة امبالا بالهند سنة ١٩١٢ حيث كانت الهند خاضعة للتاج البريطاني ، وكان والده هاري بردجير فيلبي يشغل إحدى الوظائف المدنية بالحكومة الهندية .. الإسم الرسمى للطفل هو هارولدأدريان فيلبى ، أما لقبه كيم فقد أطلقه عليه الأصدقاء السوفيت ، وهو اللقب الذى أشتهر به دائماً .. كان هو الأبن الوحيد لأبيه الغريب الأطوار الذى يهوى الأدب العربى ، وأمه الأنجليزية الأصلية .

شغل الأب مناصب رفيعة مثل وزير داخلية بريطانيا فى الحكومة العراقية ثم مدير مكتب ممثل بريطانيا فى الأردن ، ورحل بعد ذلك إلى السعودية حيث عمل مستشاراً أول للملك عبد العزيز وأعلان أسلامه وأطلق على نفسه أسم عبد الله فيلبى وتزوج مرة ثانية من أمرأة عربية ، ومن أخطر ما نلاحظه فى سيرة كيم فيلبى منذ طفولته المبكرة قسوة أبيه عليه ، فقد كان فيلبى الأب طاغية مستبداً فى بيته ، وقيل أن ما كان يعترى كيم فيلبى من تهتهة فى صغره يعود إلى هذه القسوة المفرطة من أبيه !!

فمنذ طفولته كان يسمع لعنات أبيه للحكومة البريطانية ولأولى الأمر فيها ويتهمهم بالغباء والسفاهة ، فتشرب هذا الكره للحكومة ، وكانت تعترى الأب الطاغية نوبات من السخط والهياج يلعن فيها كل شئ مما أصاب الطفل بالخوف الشديد .

عاد كيم فليبى إلى أنجلترا والتحق بجامعة كمبردج فى عام ١٩٣٠ ، وكانت الأفكار الشيوعية الثورية تلقى رواجاً كبيراً فى أنحاء العالم خاصة بين أوساط الشباب ، وقد ساعد على أنتشاها إلى حد كبير الكساد الأعظم والبطالة المتفشية ، ويبدو أن الشاب المليئ بالمرارة والكبت والعقد قد سقط فى شراك الشيوعية منذ تلك الفترة ، وإن كان قد أخفى ميوله تماماً عن الأخرين ، كما أن ولده لم يتدخل هذه المرة فى تحديد ميوله وأتجاهاته ، ومما يؤيد ذلك أن كيم فيلبى كان صديقاً حميماً لإثنان من غلاة الفكر الشيوعى فى تلك الفترة بإنجلترا وهما جاى بيرجيس ودونالد ماكلين ، ومنهما تشرب حب الشيوعية وتشبع به حتى النخاع ، ولكونه أحد أبناء الطبقة الإرستقراطية الثرية فقد كان يقضى أجازة الصيف متجولاً فى الدول الأوربية ، مما أتاح له الفرصة للتعرف إلى ثقافات مختلفة وشباب يحملون أفكاراً جديدة .. وفى ذاك الوقت كانت معاداة القومية والوطنية ومهاجمه الأوضاع الأجتماعية هى الأشياء السائدة بين الشباب ، ونجد هذا الفكر متجسداً فى كتابات كيم فيلبى حيث يدفع عن خيانته لوطنه إنجلترا فى كتاب له فيقول :(الخيانة تتطلب الأنتماء أولاً، وأنا لم أشعر بالإنتماء أبداً)

ويرجح البعض انضمامه إلى الحزب الشيوعي في هذه المرحلة المبكرة والهامة من حياته ، بوحي من صديقاه بيرجس وماكلين ، أما الشيء المؤكد فهو أن فيلبي كان شيوعياً حتى النخاع وهذه إحدى الركائز الهامة في شخصيته بجانب طغيان والده ، وأنكاره لكافة القيود والتقاليد الاجتماعية وأيضاً عدم حبه لوطنه ، سيطرت تلك الأفكار الثورية على آلاف الشباب في

ذلك الوقت ، ولكن الأمر كان مختلفاً مع فيلبي الذي أستطاع تحويل هذه الأفكار إلى واقع حيث عمل بالصحافة التي درسها في جامعة كمبردج وتخرج فيها سنة ١٩٣٣ ، وبالفعل كانت الصحافة من أكثر المواد التي تلائم ميوله ، فاتسعت دائرة اهتمامه وتنوعت معارفه وخبراته وجاب العديد من البلدان وعمل جنباً إلى جنب مع الشيوعيين .. رفاقه .

الشيوعي الأرستقراطي

في صيف عام ١٩٣٤ بدأ كيم فيلبي حياته العملية في خدمة الشيوعية ، والتي ظل على ولائه لها حتى وفاته في عام ,١٩٨٨ وكما ذكرنا فقد كانت جذوره الأرستقراطية وثراء عائلته من الأشياء التي أبعدت عنه الشبهات في ذاك الوقت .. كان فيلبي في فيينا عاصمة النمسا في عام ١٩٣٤ حيث بدأ حياته العملية كمراسل صحفى في العواصم الأوربية ، وكان الصراع ملتهباً على كل الجبهات السياسية ، فالصراعات الفكرية على أشدها وهناك الفاشية المتطرفة والشيوعية والاشتراكية والقومية والأحزاب المحافظة وغيرها من الاتجاهات الفكرية المتصارعة ، وغالباً ما يتحول هذا الصراع إلى قتال في الشوارع وعمليات تخريب وإرهاب متعمدة لمقار الأحزاب ولاغتيال زعمائها .. وفي خضم هذا الصراع الدائر في النمسا قرر فيلبي أن ينضم للشيوعيين في صراعهم المرير ضد الفاشية التي كان يمقتها .

صراع شديد شهدته النمساويين الحكومة اليمينية والمعارضة اليسارية الثائرة ، وسجل فيلبي أسمه ضمن الثوار الاشتراكيين والمدعومين من قبل الشيوعيين النمسا وبين ، وأستغل عمله كمراسل صحفي بين نقاط الأشتباك في خدمة حلفائه الأشتراكيين المعاديين للحكومة ، وقد عرف بالبراعة وخفة الحركة والذكاء وسرعة البديهة .. وهي من أهم مزايا الجاسوس الناجح والمتفوق على أقرانه .

في تلك المرحلة ألتقى فيلبي مع الفتاة التي ساعدت على ترسيخ الفكر الشيوعي بداخله ، كانت نمساوية (ويقال أن أصلها بولندي) تدعى اليس فريد مان ، وقد اشتهرت باسم " ليزا "جمع بينهما العمل ضد الفاشية والرغبة الجارفة في انتصار المعارضة الثورية اليسارية والتي قوامها الأساسي هم العمال والطبقات الفقيرة ، وفي خلال الصراع الدموي والقتال العنيف بين الطرفين المتنازعين قامت القوات الحكومية بقصف مساكن العمال الثائرين بقسوة و وحشية ، وقد كان فيلبي شاهداً لكل ما يجري ، ورأى كيف قتل المئات من التعساء بأيدي قوات تفوقهم قوة وعتاداً ، وترسخت بداخله عقدة من الأنظمة الفاشية والمحافظة ، وتحول إلى ثوري بكليته ، وهو ورفيقته ليزا التي أستولت على عقله وأيضاً على قلبه فتزوجا ، وتحولا إلى رفيقي كفاح في خنادق الشيوعيين والثوار وشهدت حياتهما مراحل عديدة من النضال الثوري .

أما عن ليزا نفسها فقد عرفت بجمالها الصارخ وفتنتها الطاغية ، ولكن أسرتها نبذتها لأدمانها على الشراب و أيضاً بسبب ميولها الشيوعية وانضمامها للثوار الذين كان ينظر إليهم في ذلك الوقت على أنهم من الفوضويون المخربون .. وكما ذكرنا فقد كانت ليزا من أهم عوامل أنخراط فيلبي في صفوف الشيوعيين ليصبح عضواً عاملاً في الأحزاب الشيوعية ، ساعدته ليزا بجمالها الآخاذ وثوريتها وحماستها التي غزت حماسته وأمدته بفيض من المشاعر التي ملأت قلبه .

وأكتشف فيلبي أن الصراع الدموي في النمسا ليس هو آخر المطاف ، بل أنه مجرد حلقة صغيرة في سلسلة حلقات الصراع بين اليساريين بصفة عامة وبين اليمنيين ، وكانت أوربا في معظمها خاضعة لحكومات من هذا النوع الأخير والذي نذر فيلبي نفسه لمحاربته والقضاء عليه مبرماً !! أن التركيبة النفسية لكيم فيلبي تبدو محيرة للغاية خاصة وأنه لإنجليزي عريق

وليس من الوافدين إلى انجلترا ، كما أن والديه من أصل إنجليزي ، وهذا ما يجعل لتصرفاته ولميوله معنىً غريباً عن غيره من العملاء الشيوعيين ، سجل فيلبي أسمه كمتطوع في صفوف الثوار الاشتراكيين ، وبالطبع كانت ليزا بجواره ، فهي التي سبقته إلى هذا العمل الثوري واضطلعت بمهام في غاية الخطورة ونجحت فيها نجاحاً مذهلاً !!

كان هناك عدد كبير من المتطوعين الأجانب في صفوف المناوئين للحكومة ، كلهم من المنتمين للشيوعية أو للاتجاهات اليسارية ، ولكن فيلبي كان متميزاً عنهم بأشياء كثيرة كما ذكرنا .. وكانت هذه المزايا الهامة هي التي جذبت إليه أنظار جهة أخرى لم تخطر بباله من قبل !!

فيلبي والثورة العالمية

من أهم المزايا التي تمتعت بها المخابرات السوفيتية دائماً هي أنها تملك عملاء مخلصون للمبادىء الشيوعية وبالتالي للدولة الشيوعية الأولى التي ترفع لواء هذه المبادىء .. وهي الاتحاد السوفيتي ...وتوجد روايات عديدة لانضمام فيلبي للمخابرات السوفيتية K.G.B .. ومنها أن اثنان من المخابرات السوفيت كانا متواجدان في النمسا في ذاك الوقت أحدهما شيوعي مجرد يدعى تيودورمالي والآخر هو جابور بيتر .. لاحظا أن فيلبي شديد التعصب للشيوعية ولديه استعداد كبير للتضحية بكل شيء في سبيل نصرة المبادىء الشيوعية ، فاقتربا منه كثيراً وتحول الجميع إلى رفاق فى خدمة قضية الثورة العالمية !! وهي كما نرى شعارات براقة بوسعها اجتذاب آلاف الشباب إليها دون وعي .

إذن فقد تم تجنيد فيلبي بواسطة هذا العميلان أو عن طريق عملاء آخرون وفي النمسا. أو في باريس أو في أي مدينة أوربية .. وبدأ يوسع نشاطه في خدمة حلفائه الجدد ، فهو يملك مواهب وإمكانيات قلما تتوافر

في غيره ، بالإضافة إلى شبابه وحيويته وثقافته، وكلها عوامل أمكنه استغلالها جيداً من أجل خدمة الثورة العالمية كما سنرى بعد قليل ، وقد أثبت عملاء الـ K.G.B بعد نظرهما بأختيارهما فيلبي للعمل لدى المخابرات السوفيتية .. فقد أصبح أحد أعظم الجواسيس من وجهة نظر الروس بالطبع

ونشير هنا إلى أن عدد كبير من الجواسيس انضموا للمخابرات السوفيتية K.G.Bمن خلال الدعايا المكثفة للفكر الشيوعي والشعارات البراقة كالثورة العالمية وإلغاء الفوارق بين الطبقات وغيرها من الشعارات الجوفاء التي أثبتت التجارب العملية فشلها الذريع خاصة بعد أن تقلصت الممارسات الاستعمارية وتحررت أغلب الشعوب في النصف الثاني من القرن العشرين ، وتبين أن الشيوعيين لا يختلفون في ممارساتهم القمعية وفي إنزال المظالم بالفقراء والتعساء ، عن الاستعماريين الغربيين .. لقد اعتمدت الدولة الشيوعية الأولى في حربها ضد الغرب على الشعارات البراقة واجتذاب آلاف المفتونين بتلك الشعارات إليها والانسياق لأوامرها والعمل وفق إرادتها وكأنهم مسلوبي الإرادة غائبي العقول !!

ولعل أكثر ما أجتذب فيلبي إلى الشيوعية هو رؤيته لعشرات الفقراء في النمسا وهم يلقون حتفهم بمدافع الحكومة اليمينية ، فاقترنت الممارسات القمعية وعمليات القتل الوحشي في ذهنه باليمين و الغرب ، وأقترن العدل والدفاع عن الكرامة والحق في العيش بالشيوعيين وهذا ما جعل فيلبي من أكثر الجواسيس إخلاصاً وتفانياً في التجسس على بني وطنه ، وإمداد السوفيت بأدق وأخطر الأسرار ، كما أنه أستخدم ذكائه الشديد وبراعته في التعامل مع الآخرين ، في الحصول على المعلومات والوثائق ، وكانت كل أفعاله وتحركاته وتكتيكاته بمثابة دروس يتعلمها دارسي التجسس ، فلم يترك شيئاً للظروف وتصرف بجراءة في مواقف تثير خوف الكثيرين سواه .

خدعة الثعلب

بدأ كيم فيلبي حياته كجاسوس في خدمة الاتحاد السوفيتي بخدعة بارعة للغاية ، حيث أراد الوصول إلى الحكومة البريطانية والالتحاق بإحدى الوظائف الهامة التي ستعينه في (عمله) الخطير.. كجاسوس سوفيتى .. فماذا فعل ؟ لقد تصرف على محورين .. الأول الذهاب بنفسه للأنضمام إلى الجمعية الأنجلو .. ألمانية اليمينية التي تعمل على إقامة حلف بين بريطانيا وألمانيا ، وكان ذلك بالطبع قبل نشوب الحرب العالمية الثانية ، وهدفه هو نفي شبهة الشيوعية عن نفسه .. أما المحور الثاني فكان السعي للعمل في خدمة الحكومة البريطانية ، لم يتقدم بصورة مباشرة بل عمل مراسلاً صحفياً لجريدة لندن تايمز ، فرحل أولاً إلى باريس ، وكان يتعمد إرسال تقارير متميزة للزعيم الأسباني الجنرال فرانكو ، وكان هو زعيم اليمنيين الأسبان .

أما في باريس فقد عمل كيم فيلبي سراً على دعم المتمردين الشيوعيين وإعداد المتطوعين للقتال ضد فرانكو ، كما تعاون هو وزوجته ليزا على جمع الأموال وتجهيز الأسلحة وعقد صفقات التسلح من أجل الشيوعيين الأسبان .. كل هذا كان يتم سراً ، بينما تتوالى تقاريره الصحفية إلى لندن والمتحيزة للجنرال اليميني فرانكو !! وقد حقق من جراء ذلك فائدة مزدوجة ، فقد أكتسب صداقة اليمنيين الأسبان وبذلك حصل منهم على الكثير من الأسرار ، ونقلها بدوره إلى حلفائه الشيوعيين ، كما عرف بميوله اليمينية في انجلترا مما مهد له الوصول إلى هدفه الأكبر وهو الحصول على وظيفة هامة فى الحكومة البريطانية .

أما الشق الأهم في مهمة فيلبي إلى فرنسا ، فهو توطيد الاتصال بالعملاء السوفيت والتنسيق معهم بشأن المهام القادمة ، وإمدادهم بمعلومات وأسرار هامة حصل عليها بوسائله الخاصة ، وكان السوفيت شديدوا الثقة

في عميلهم المخلص كيم فيلبي ويتوقعون منه الكثير والكثير ، ولم يخيب ظنونهم .

وحتى يؤكد لأولى الأمر في بريطانيا أنه بريء من كل ميول شيوعية فقد طلق زوجته ليزا ، وقيل أنها تزوجت بعد ذلك وعاشت في إحدى دول أوربا الشرقية الشيوعية ، وأقدم فيلبي على القيام بأخطر خطوة في حياته بمساعدة صديقه الشيوعي جاى بيرجس الذي نجح في العمل بالمخابرات البريطانية !! تقدم فيلبي للعمل بجهاز المخابرات عام ١٩٣٩ بتزكية من صديقه بيرجس ، وكان لابد من كتابة سيرته الذاتية والتحري عنه بدقة لمعرفة ميوله السياسية وأتجاهاته الفكرية ، وبجراءة يحسد عليها ذكر كيف أتصل بالشيوعيين في بداية حياته الجامعية ثم شعر بالنفور من أفكارهم فابتعد عنهم تماماً ، وكان يعلم أنهم سيقومون بعمل تحريات دقيقة عنه وسيصلون إلى الحقيقة ، ولذلك ذكرها لهم ، وكان هذا ما عزز موقفه وجعلهم يقبلون طلبه بالعمل معهم ، فألحق بجهاز المخابرات ، وبالتحديد بقسم مهمته أختراق مخابرات العدو وتغذيتها بمعلومات كاذبة ، وتم تكليف فيلبي بخداع جهاز المخابرات السوفيتى !!

وفيما بعد ، وعندما أكتشفت خيانة فيلبي ذكر رئيس المخابرات أن ما ذكره فيلبي من أتصالاته بالشيوعيين ثم أنصرافه عنهم ، وقد حدث لعدد كبير من الشباب ، وذكر والد فيلبي أن أتصال أبنه بالشيوعيين في شبابه المبكر ما هو إلا نوع من حماقة المراهقين ، ولايمكن أن يصبح أبنه شيوعياً أبداً .. وبالتالي منحت الثقة للشاب النابه ولم يداخل رؤسائه أية شكوك فى حقيقة هويته أو ميوله الشيوعية ، ولا يتخيل أحد أنه قد تم ألحاق جاسوس خطير بالمخابرات البريطانية ، وقد تمكن بحكم عمله من الأطلاع على أخطر الوثائق المتعلقة بالشيوعية وبالأتحاد السوفيتي ، وهي وثائق لا يتاح الأطلاع عليها لأي جاسوس ميدانى !!

وخلال السنوات التالية أثبت فيلبي كفاءة كبيرة في العمل مع المخابرات البريطانية ، وعرف بنشاطه ودقته وذكائه مما مهد السبيل أمامه للترقي ، ورشحه البعض ليصبح يوماً رئيساً للمخابرات البريطانية !!

إلى هذا الحد بلغ نجاح كيم فيلبي ، كما أنه كان محبوباًمن الكبار والصغار في جهاز المخابرات ، وفي نفس الوقت أصبح من أهم وأخطر الجواسيس السوفيت على الأطلاق .

خدمات لا تقدر بثمن

لا أحد يعرف على وجه التحديد مقدار الخدمات العظيمة التي قدمها فيلبي للأتحاد السوفيتي خلال الحرب العالمية الثانية ، وما تلى الحرب من سنوات ، ففي عام ١٩٤٤ وقرب نهاية الحرب لعب الحظ دوراً كبيراً في وضع فيلبي بأخطر موقع على الإطلاق ، فقد رأس الشعبة التاسعة بالمخابرات البريطانية وكانت مهمتها التصدي للجاسوسية السوفيتية وأختراقها بكافة السبل والوسائل ، ووضعوا تحت أمرته عدد كبير من العملاء يمكنه الأستعانة بمن يشاء منهم لإنجاز مهامه الصعبة !! وقد وفرت له هذه المصادفة العجيبة فرصة التعامل المباشر مع المخابرات السوفيتية دون أن تلحق به أدنى شبهة.. فهو يؤدي عمله الرسمي في أختراق المخابرات السوفيتية !! ويالها من مصادفة .

ويجمع المؤرخون على أن أهم خدمات فيلبى الحيوية للإتحاد السوڤيتى أنقاذه من التفكك والإنحلال وذلك بإحباط مساعى أعداء النازية للحصول على دعم بريطانى وغربى للإحاطة بهتلر، فكان هذا يعنى تحالف الألمان مع الغرب فى الإحاطة بالحكومة الشيوعية وتوغل الجيوش الألمانية إلى عمق الأراضى السوڤيتية ، فكان فيلبى يعمل على تشويه تقرير معارضى هتلر وتسفيه أرائهم وتجريدها من أهميتها وفاعليتها ، وبالفعل

أهملت الحكومة البريطانية هذه التقرير وصرفت النظر عن مساعدة أعداء هتلر للإحاطة به .

ومن أهم ما قدمه كيم فيلبى للمخابرات السوفيتية إطلاعهم على كشوف كاملة بأسماء عملاء المخابرات البريطانية في الإتحاد السوفيتى ودول أوربا الشرقية ، حيث تم أقتناصهم تدريجياً ، وفى نفس الوقت كان يقدم للمخابرات السوفيتة أهم وأخطر المعلومات بحكم عمله الرسمى .. ويا لها من خيانة .. ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد كان يتلقى معلومات من السوفيت وينقلها إلى الغرب الذى ينخدع فيها .. وظل الحال هكذا عدة سنوات !

وكاد فيلبى أن ينكشف فى عام ١٩٤٥ وذلك عندما لجأ ضابط مخابرات روسى كبير يدعى كونستانتين فولكوف إلى السفارة البريطانية فى أستانبول يطلب حق اللجوء السياسى ، ولاغرائهم على قبول طلبه ذكر أن لديه معلومات على درجة عظيمة من الأهمية والسرية تتعلق بأختراق المخابرات السوفيتية للمخابرات البريطانية ، وعندما علم فيلبى بذلك بحكم موقعه وسلطاته أنتابه الخوف خشية أفتضاح أمره .. لم يكن فولكوف يعلم بحقيقة الجاسوس السوفيتى ولكنه ذكر بعض الإشارات التى يمكن أن تدل عليه .. لجأ فيلبى إلى يورى مردين أحد كبار زعماء الـ K.G.B والمشرف على العملاء فى إنجلترا ، فأشار عليه بالذهاب إلى أسطنبول بحكم عمله لإستجواب (الخائن) فولكوف ، ويبدو أنهما أعدا خطة على أعلى درجة من البراعة والأتقان ، حيث رحل فيلبى على الفور إلى أسطنبول .. ويقال أن البعض رأوا جسداً ملفوفاً بالضمادات من الرأس إلى القدم يتم حمله إلى طائرة سوفيتية تربض فى مطار أسطنبول !!

أما ضابط المخابرات السوفيتى المنشق كونستانتين فولكوف فقد أعلن عن أختفاءه فجأة فى ظروف غامضة !! وبالطبع لم يتم الربط بين فيلبى وبين

أختفاء فولكوف ..

فمن الذى يخطر بباله أتهام الوطنى المخلص كيم فيلبى ؟

وتقديراً لخدمات كيم فيلبى الجليلة للحكومة البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية ، قلده الملك چورچ الخامس وسام الإمبراطورية البريطانية !! ومن العجيب أن نجمه كان يرتفع فى سماء إنجلترا ، وكذلك فى سماء الإتحاد السوفيتى ، فقد قدم للسوفيتى أسماء عملاء المخابرات البريطانية والعاملين فى الدول الشيوعية للقضاء على الحكم الشيوعى فيها !!

فيلبى والمخابرات الأمريكية

حدث تطور هام للغاية فى حياة كيم فيلبى العملية ، فنتيجة لإنجازته الملموسة وكفاءته الملحوظة تقرر ترقيته !! وفى عام ١٩٤٩ أصبح مدير لمكتب المخابرات البريطانية فى واشنطن ، كانت الوظيفة الرسمية التى يشغلها هى سكرتير أول السفارة البريطانية وهى بالطبع وظيفة وهمية لإخفاء حقيقة منصبه ، وكانت مهمته هى تحقيق الترابط والتنسيق مع المحابرات الأمريكية وذلك فيما يتعلق بالمسائل الأمنية والمعلومات التى تهم كلا البلدين ، ومن الطبيعى أن يكون العدو المشترك للدولتين هو الإتحاد السوفيتى !

أما على الجانب الآخر وفى المخابرات السوفيتية فقد كانت فرحة المسئولين طاغية لهذه النقلة التى ذهبت بعميلهم المخلص كيم فيلبى إلى واشنطن العاصمة الأمريكية ، وتوقعوا منه الحصول على أسرار المخابرات الأمريكية كما أمدهم بأخطر إسرار المخابرات البريطانية خلال السنوات السابقة ، ولم يخيب فيلبى ظن سادته فى الإتحاد السوفيتى حيث وطد علاقاته مع أهم المؤسسات الأمريكية ، الحكومة ووزارة الدفاع والمخابرات المركزية C.I.A ساعده على ذلك شخصيته الجذابة ، وزمالته لعدد من

المسئولين خلال دراسته الجامعية ، وكذلك سمعته الطيبة وأنجازاته خلال فترة الحرب العالمية !! عقد صداقات وطيدة مع الكثيرين وحصل على معلومات خطيرة وأسرار لا تقدر بثمن كان ينقلها على الفور إلى الأتحاد السوفيتى ، ومن أهم خدماته للسوفيت أكتشافه سر الشفرة المستخدمة فى عملية حل الشفرات السوفيتية ، وتأثرت الإتصالات السوفيتية بعد ذلك كثيراً وبدأت المخابرات الأمريكية تشك فى الأمر .

وشاءت الصدفة أن يتم العثور على كتاب شفرة محترق إلا قليلاً فى فنلندا ، وبه الكثير من المفاتيح السرية لحل الشفرة السوفيتية .. ومن خلاله تم معرفة الأسماء الحركية لعدد كبير من العملاء السوفيت وكان هذا العدد يقدر بالمئات ومن الصعب الوصول إليهم عبر العالم ، ولذلك تم التركيز على الأشخاص الذين يشغلون مناصب مرموقة ويوجدون فى مواقع مؤثرة .

ويبدو أن النجاح المستمر يدير الرؤوس ويجعل البعض يشعرون بالغرور والتميز والأستعلاء ، والشئ المؤكد هو أن السير فى طريق خاطئ لابد وأن يؤدى إلى نهاية سيئة مهما طال الوقت .. شاءت المصادفات أن ينضم أحد الأشخاص المشبوهين إلى فيلبى فى واشنطن عام ١٩٥٠وكان سبباً فى بداية أنكشاف أمره .. ففى هذا العام وصل إلى واشنطن "جاى بيرجس " صديقه القديم وزميل جامعة كمبردج الشيوعى .. عمل بيرجس سكرتيراً ثانياً للسفارة البريطانية وعاش مع فيلبى فى شقته وقضيا معاً سهرات صاخبة خاصة وأن فيلبى قد ترك زوجته فى لندن .. وكان هناك أحد كبار العملاء السوفيت العاملين فى الخارجية البريطانية هو دونالد ماكلين ، وبحكم موقع فيلبى الحساس ، فقد ألتقط أشارات عن وجود عميل سرى خطير فى الخارجية البريطانية أسمه الحركى (هومو) ، وأن هذا العميل رحل من واشنطن إلى نيويورك مرة لزيارة زوجته الحامل .. وعلى الفور عرفه فيلبى وأبلغ المخابرات السوفيتية لإعداد

خطة عاجلة لدرء هذا الخطر .

خشى المسئول السوڤيتى عن منطقة غرب أروبا أن ينهار دونالد ماكلين ويفضح أسرار باقى العملاء أسرار باقى العملاء السوڤيت العاملين فى المنطقة ومنهم فيلبى بالطبع ، وقرر أن يتم تهريب ماكلين إلى موسكو بسرعة ..

علاقات مشبوهة

كان دونالد ماكلين فى إنجلترا ، وصدرت الأوامر العاجلة لجاى بيرجس بأن يعمل على تهريبه إلى موسكو ولكن فى سرية تامة حتى لا يضار أحد من العملاء السوڤيت ، وقد وقع بيرجس فى أخطاء كثيرة خلال تنفيذ هذه الخطة ، وكانت الشكوك تحيط بجاى بيرجس أيضاً ، وبدون تفكير غادر بيرجس الولايات المتحدة إلى لندن حيث التقى بصديقه ماكلين ، وبعد أيام قليلة ظهر الأثنان معاً فى الإتحاد السوڤيتى !!

كانت مفاجأة صاعقة للمخابرات البريطانية والأمريكية ولعملاء المخابرات السوڤيتية أيضاً ومنهم فيلبى ، وبالتحرى توصلت المخابرات إلى علاقة الصداقة الحميمة التى تربط بين فيلبى وبيرجس ، وأدركت المخابرات السوڤيتية حرج موقف فيلبى ، وشعر الجميع بالحزن بعد أن كان على وشك شغل منصب مدير المخابرات البريطانية .. لقد أضاع بيرجس بتصرفاته الحمقاء كل شئ .. وبعد فترة قليلة أرسلت المخابرات الأمريكية رسالة مقتضبة إلى المخابرات البريطانية تقضى بضرورة إبعاد فيلبى عن الولايات المتحدة وإلا أوقفت التعاون بين الجهازين !! فعاد إلى لندن والشكوك تحاصره من كل جانب ، وبدأت التحريات الدقيقة عنه وأخذت المخابرات تتعقب أعماله .

عندما سئل فيلبى عن حقيقة ما حدث خلال التحقيقات التى أجريت معه قال أن بيرجس كان صديقه الحميم وأنه كان يطالع البرقية الواردة من مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكى التى تتهم صديقه بالتجسس ، فضحك وقال بيرجس هل تتصور أن هؤلاء الحمقى يعتقدون أنك جاسوس سوفيتى ؟ أنه هراء .. وهكذا أوهمهم أنه نقل السر لصديقه دون أن يدرى ، وقد دهش عندما أكتشف أختفاء بيرجس فى مساء نفس الليلة ، وذكر لهم فيلبى أنه أسرع بإبلاغ السفير البريطانى فى أمريكا باختفاء بيرجس.. لقد أحسن فيلبى التصرف فى هذا الموقف المعقد رغم أنه كشف نفسه ، فلم يكن أحد سواه يعلم شيئاً عن البرقية السرية التى تتهم بيرجس بالتجسس ، كما انه لم يعترف بالخطأ المباشر بل ، ادعى أنه فعل ما فعل على سبيل التفكه والدعابة والتصرف بطريقة حمقاء .. وقد أيده بعض الزملاء فى هذا السلوك ..

تم فصل فيلبى من الخدمة فى عام ١٩٥١ وقضى عدة أشهر فى حياة شاقة مع زوجته وأولاده وتجنبه الزملاء وتحاشوا التعامل معه ، ولكن بعض المسئولين تعاطفوا معه وشعروا بأنه راح ضحية شك المخابرات الأمريكية وقد صدقهم المسئولين البريطانيين وأدانوا فيلبى دون تحرى الأمر ومعرفة الحقيقة ، وبدأت المخابرات البريطانية تجرى المزيد من التحقيقات حول فيلبى ، وتبين لهم وجود شبهات كثيرة حوله .. وللوصول إلى حقيقته ولجذب العملاء السوفيت قرروا نصب مصيدة جديدة .. لقد شعروا بأن فيلبى علاقة بالمخابرات السوفيتية ، وأن كل ما حدث فى السنوات السابقة لم يكن مصادفة ، بل أنهم شكوا فى أنه هو العميل الأكبر صاحب الأسم الحركى "ستانلى" .. أخطروه بعودته للعمل معهم وإرساله إلى منطقة حافلة بالعملاء السوفيت هى منطقة الشرق الأوسط ، وقد أستغلوا نشاط والده فى البلاد العربية ومعرفته بكثير من الأمور فى المنطقة وأرسلوه إلى لبنان ، حيث عمل مراسلاً لمجلة الإيكونوميست فى الشرق الأوسط !!

كان فيلبى حذراً غاية الحذر يتصرف ببساطة وتلقائية ويحذر من الإتصال بالمخابرات السوفيتية لأنه مراقب ليل نهار خاصة بعد أن ثار جدل عنيف فى مجلس العموم البريطانى حوله حيث أتهمه نائب عمالى بالخيانة وبتحذير دونالد ماكلين وجاى بيرجس قبل إلقاء القبض عليهما ، ودافع عنه هارولد ماكميلان وذكر خدماته الجليلة للبلاد خلال فترة الحرب وتم تبرئه فيلبى ، وبالتالى فلم تعد هناك عقبات فى سبيل عودته إلى خدمة المخابرات البريطانية .. وكان هذا تدبيراً بارعاً من المخابرات للإستفادة من جاسوس ماكر .. داهية لا يدانيه أحد فى دهائه .

وأبتسم الحظ مرة أخرى لفيلبى فى بيروت ، فقد أتهمه أحد الموظفين البريطانية فى لبنان بالتجسس وأنه يشتبه فيه فتمت مضاعفة عمليات المراقبة من حوله ، وتبين أن كل تصرفاته عادية ، وأنه لا يفعل أكثر مما تتطلبه وظيفته كمراسل لصحف محترمة ، مما يستوجب الإتصال بجهات مختلفة .. وهكذا .. وبدون تدخل منه .. أصبح فيلبى بعيداً عن دائرة الإشتباه ولو قليلاً .. وخلال العام الأول لوجوده فى بيروت لم يأت بتصرفات معيبة أو يتصل بأشخاص مشبوهين ، أما أتصالاته التليفونية فلم تتناول أكثر من الأمور العائلية المعتادة .. كل هذا ثم أثباته فى تقارير المراقبة المتعلقة به !!

كان فيلبى يتصرف كالثعلب الماكر ، فلم ينقل المعلومات السرية التى توافرت لديه فى ذلك الوقت إلى حلفائه السوفيت ، فهو يعلم أنهم يضعون الطعم أمامه ويراقبونه عن بعد .. وهو لن ينساق إلى الفخ بقدميه .. وبدا أن الصراع كان بين عقول على أعلى درجة من الدهاء والحذر والمكر ومن الصعب أن تقع فى أخطاء ساذجة .. ولكن .. من الذى لا يخطئ أو يرتكب أخطاء ساذجة ولو بعد حين ؟!

فى العام التالى لوجوده فى بيروت وهو عام ١٩٥٦بدأ فى تلبية الدعوات

للسهر ، ووقع فى غرام زوجة أحد الصحفيين الأمريكيين ، وفى العام التالى توفيت زوجته ، ورأت المخابرات البريطانية أن تصرفات فيلبى عادية نظراً لظروفه العائلية ! .. طلقت اليانور من زوجها وتزوجها فيلبى فى عام ١٩٥٩ وعاشا معاً فى شقة فاخرة ، وشهدت تلك الشقة العديد من السهرات والحفلات الصاخبة التى تدعى إليها الكثيرون من الأجانب وذوى المناصب الرفيعة ، وبدت السعادة تحيط بالزوجين من كل جانب ، وذهبا معاً إلى حفلات رسمية كثيرة أقامها الأثرياء والدبلوماسيين والسفراء الأجانب فى لبنان .

كان فيلبى يتصرف بحذر بالغ مما أعجز أعدائه عن التوصل إلى أى شئ يدينه ، وقد صرخ أحد الدبلوماسيين الأمريكيين فى بيروت بأن دبلوماسى بريطانى حدثه عن الشبهات التى تحيط بفيلبى وعنه إتصالاته بالشيوعيين ، فقال أنه لا يجد شيئاً من الصحة فى هذه الاتهامات ،وان مقالات فيلبي في المجلات البريطانية التي يراسلها لا تتضمن ادنى إشارة إلى الشيوعيين ، بل أنه يبدو متحفظاً ضد الشيوعية !! إلى هذا الحد نجح فيلبي في درأ الشبهات عنه وأكتساب ثقة الجميع .. أستمر الوضع هكذا حتى عام ١٩٦٢ الذي شهد أحداثاً مثيرة ومتلاحقة كشفت عن كل الأسرار.

الهروب الغامض

تقريباً كانت المخابرات البريطانية وإدارة مكافحة الجاسوسية قد انتهت من قضية فيلبي وكادت تغلق ملفه إلى الأبد لحسن سيرته وعدم وجود أية شبهات حوله ، وتشاء الأقدارأن ينكشف كل شاء بمحض الصدفة .. كان قد تعرف بشخصيته سياسية عربية مرموقة وعرض على صاحبها العمل معه وأمداده بالمعلومات نظير أموال باهظة.. أو بمعنى أدق حاول تجنيده للعمل لصالح المخابرات السوفيتية !!

ولم يتخيل فيلبى لحظة واحدة أنه كان يقدم هذا العرض لعميل بالمخابرات البريطانية !!

على الفور أخطر المسئول المخابرات البريطانية لتظهر أمامهم الحقيقة التى غابت عنها سنين طويلة .. وهى أن فيلبى خلال الفترة الأخيرة ، وعقب وصوله إلى بيروت لم يكن يقوم بأنشطة تجسس لصالح السوفيت بنفسه ، بل أنه كان يقوم بمهمة أكثر أهمية وخطورة .. كان يقوم بتجنيد العملاء وتأسيس شبكات التجسس وهى عملية تحتاج إلى شخص ذو مهارات وقدرات خاصة.. مثل فيلبى.. أما الطريقة التى كان يجذبهم بها فهى الإدعاء بأنهم سيعملون لصالح المخابرات البريطانية ، ومن خلالهم يحصل على أخطر الأسرار والمعلومات التى تصل فى أسرع وقت إلى جهاز الـ K.G.B فى موسكو مع الحرص على منح المخابرات البريطانية قدر ضئيل من هذه المعلومات !!

وهكذا خدع فيلبى المخابرات البريطانية والمخابرات الغربية بصفة عامة طوال أكثر من عشرين عاماً ، نجح خلالها فى الوصول إلى أرفع المناصب فى بريطانيا حتى صار بمثابة الرجل الثانى فى المخابرات البريطانية ويالها من فضيحة مدوية .. وكان لابد من القبض عليه متلبساً حتى يساق إلى المحكمة ويعترف بكل ما اقترفه فى حق بلاده من خيانات بشعة ، وتقرر مراقبته مراقبة دقيقة ليل نهار والأستعانة بالأمن اللبنانى لإحكام عملية المراقبة ، وجاءت النتائج مذهلة .. فقد شوهد يتسلل إلى شرفة منزلة ، وهى مرتفعة ، يلوح بأداة بطريقة خاصة ، ولاشك أن هناك من يلتقطها فى الشرفات والنوافذ المنتشرة من حوله ، وللوصول إلى هذا الطرف الثانى تم عمل تحريات مضينة والقيام بالمراقبة لعدة أيام ، وأخيراً تم القبض على رجل أرمنى يتلقى من فيلبى هذه الأشارات ، ولكن لم يكن الرجل يعرف شيئاً عن معنى الإشارات بل أنه يقوم فقط بنقلها إلى أخر..

وهكذا يثبت فيلبى لعله أنه يتصرف بحذر ومن الصعب الإيقاع به .. ثم القبض على الرجل الأزمنى وإيداعه السجن ومراقبة فيلبى يخطى .

عندما شعر فيلبى بالخطر يقترب منه وبأنه مراقب أفلتت أعصابه الحديدية للمرة الأولى ، وأقدم على أرتكاب غلطة لا يقع فيها جاسوس مبتدئ .. لقد أتصل برؤسائه .. زعماء المخابرات السوفيتية وطلب منهم المشورة ثم غادر منزك بعد منتصف الليل وأستقل سيارة أجرة ثم قام بإبدالها عدة مرات حتى يضلل مراقبيه ، ولكن لسوء حظه تمكن المراقبين من تعقبه جتى وصل إلى شقة صغيرة فى أحد البنايات ، وبعدها بقليل وصل شخص أخر فى سيارة أجرة .. كان من العاملين فى السفارة السوفيتية ببيروت .. وبالطبع لم يعرف أحد ما دار فى هذا اللقاء ولم يكن هناك ما يثبت إدانة فيلبى .

وفى تلك الفترة سقط عميل سوفيتى هام يعمل أيضاً فى المخابرات البريطانية وهو چورج بليك ، وأدلى بإعترافات مثيرة ، وأتهم فيلبى بالتورط فى عمليات التجسس على بريطانيا .. تم إرسال محققين بريطانيين على وجه السرعة إلى بيروت لإستجواب فيلبى وذلك فى عام ١٩٦٢، ورغم أدانة فيلبى وثبوت أتصاله بعملاء سوفيت إلا أن المحقق لم يستطع إلقاء القبض عليه فى بيروت .. فهى ليست أرض بريطانية.. وشعر فيلبى بأنه قد أن الآوان للعمل الحاسم قبل أن يلقوا القبض عليه .

بعد أيام كان السكرتير الأول للسفارة البريطانية يقيم حفلاً بمنزله ودعى إليه بالطبع فيلبى وزوجته البانور .. وصلت الزوجة وحدها وذكرت أن زوجها فى مهمة رسمية وسوف يصل حالما ينتهى منها ، ولكن الوقت مر دون أن يصل كيم فيلبى مما جعل اليانور تشعر بالقلق عليه .. لقد أخبرها أنه قادم بعد قليل وهو لم يتعود على التأخير عن مواعيده أبداً .. ولم يعد حتى صباح اليوم التالى فاتصلت اليانور بأصدقائه دون جدوى وتم إبلاغ البوليس وجرت

عمليات بحث مكثف عنه فى الطرقات والمستشفيات وفى كل الأماكن التى كان يتردد عليها دون جدوى ، ثم البحث فى سجلات مغادرة البلاد فلم يعثر له على أثر فى كشوف المغادرة سواء بالطرق البرية أو البحرية أو الجوية !!

ولكن بعد يومين تلقت اليانور رسالة من فيلبى يخبرها فيها بأنه فى رحلة عمل بمنطقة الشرق الأوسط وأنه يأسف للتأخير والأزعاج .. فاتصلت بأصدقائه وأخبرتهم بكل ذلك ، وإن لم تكن مطمئنة لما حدث .. فكيف يغادر منزله بهذه الطريقة دون أن يأخذ معه أى شئ من ملابسه ومتاعه .. حتى فرشاة أسنانه تركها كما هى !! وتعجب رجال الأمن من ذلك .. فكيف يغادر البلاد واسمه غير مدون على كشوف المغادرة ؟!

فلابد أذن من مغادرته البلاد بطريقة غير شرعية !! وراجت الإشاعات فى كل مكان .. بعضها يؤكد أن فيلبى قد أنتحر ، والبعض يرجح أنه مقبوض عليه من قبل المخابرات البريطانية ، وأخرى نقول أنه فى شمال أفريقيا .. وغيرها من الأشاعات التى ثبت بعد قليل أنها كلها كاذبة !

أرسل إليها زوجها رسالة سرية يخبرها بأنه فى أنتظارها لو أرادت اللحاق به ، وما عليها إلا وضع إناء الزهور على حافة الشرفة ليصل إليها رجل أمين .. فعلت ذلك وبعد دقائق رن جرس الباب ، ووجدت أمامها موظف فى السفارة السوفيتية أخبرها بأن فيلبى الآن فى الأتحاد السوفيتى وأنها تستطيع اللحاق به إذا أرادت وسوف يتم تدبر الأمر .. قامت اليانور بإبلاغ السلطات البريطانية التى كانت تتوقع حدوث ذلك عقب الأختفاء الغامض لكيم فيلبى ، ولم يكن هناك مناص من الإعلان عن الفضيحة المدوية .. خيانة الرجل الثانى فى المخابرات وفى يولية من عام ١٩٦٤ أعلن الأتحاد السوفيتى من خلال صحيفة ازفستيا أنه قد تم منح حق اللجوء السياسى إلى كيم فيلبى الذى يعيش مكرماً فى البلاد .

عاش فيلبى حياة طويلة فى الإتحاد السوفيتية بعد أن غير هويته وتنكر

لبلاده وخانها .. منحته السلطات السوفيتة مسكناً فاخراً وتزوج من فتاة سوفيتية رائعة الجمال ، وهو الزواج الرابع له ، لم يمارس عملاً رسمياً بالطبع وأن كان المسئولون قد لجأوا إليه لأستشارته فى كثير من الأحيان ، فهو خبير فى مجالاته السياسية والتخابر ومعرفة خفايا أجهزة المخابرات الغربية ، ومن العجيب أنه كان يحرص على مراسلة أصدقائه من الإنجليز ويتبادل معهم التهانئ فى المناسبات ، كما كان يلتقى بالصحفيين البريطانيين الذين يصلون إلى الإتحاد السوفيتى .

أصيب فيلبى بالعديد من الأمراض التى أقعدته ثم توفى سنة ١٩٨٨ ، وحضر جنازته أهم رجال السياسة وكبار الشخصيات السوفيتية ومنح لقب چنرال ، ودفن فى مقبرة بموسكو وعلقت على صدره الأوسمة الرفيعة التى منحها له الإتحاد السوفيتى !! فقد كان أعظم الجواسيس الأجانب الذين خدموا الإتحاد السوفيتى ونقلوا له أسراراً لا يعلم أحد مداها حتي اليوم !!

* * *

اليهودى الحائر

لم يكن أختراق المخابرات السوفيتية للمخابرات البريطانية من خلال العميل الداهية كيم فيلبى هو الأختراق الوحيد ، بل أن هناك أختراق آخر يكاد يضارعة فى الأهمية وهو الأختراق من خلال چورچ بليك .. وهى قصة لا تقل إثارة عن قصة كيم فيلبى ، وإن كانت نهايتها أكثر إثارة حيث لم يتوقعها أحد على الإطلاق !!

ولد چورچ بيهار(وهذا أسمه الحقيقى) فى عام ١٩٢٢ بأمستردام العاصمة الهولندية ، عائلته تعد من أقدم العائلات اليهودية فى هولندا ، فى الرابعة عشرة من عمره توفى والده ، وبناء على وصيته تم إرسال چورچ للدراسة فى المدرسة الإنجليزية بالقاهرة كى يشرف عليه عمه "هنرى كوريل "وكان كوريل هو أحد المؤسسين للحزب الشيوعى المصرى وأحد العملاء

القدامى للمخابرات السوفيتية ، وبحاسته التى لا تجنب أدرك أن أبن أخيه يملك موهبة عظيمة فى مجال التجسس فتولاه بالرعاية وأخذ يلقنه المبادئ الشيوعية تدريجياً حتى صار چورچ شيوعياً كاملاً .

عاد الشاب إلى هولندا وهو مؤمن بالمبادئ الشيوعية والتحق بإحدى المدارس العليا فى روتردام سنة ١٩٣٨ ، وفى سنة ١٩٤٠ أنقلبت حياته رأساً على عقب ، فقد نشبت الحرب العالمية الثانية ، وأجتاحت جحافل النازيين هولندا فهرب معظم المواطنين إلى الخارج ومنهم أمه وإختاه الذين هربوا إلى إنجلترا خوفاً من بطش النازيين بهم لكونهم يهود ، أما چورچ فقد أنضم إلى قوات المقاومة فى هولندا وصمم على محاربة النازيين أنتحل أسم "ماكس دى فريز" ، وخلال إحدى العمليات وقع فى أسر الألمان ، وقبل أن يقدم للمحاكمة أستطاع الهروب مستغلاً ذكاءه وبراعته .. أرتدى زى راهب وتمكن من الوصول إلى بلچيكا ثم إلى لندن ، غير أسمه إلى جورج بليك وتقدم للتطوع فى صفوف القوات البحرية ، وكان يرمى إلى الإلتحاق بالمخابرات البريطانية .. لقد أرتحل جورج عبر بلاد عديدة وتعرض لمواقف شديدة الحرج ، ولكنه لم يفقد إيمانه بالمبادئ الشيوعية التى لقنه إياها عمه هنرى كوريل فى مصر !!

وبعد جهد وحيل عديدة تمكن چورچ بليك من الإلتحاق بالمخابرات البريطانية .. ولكن .. فى عمل كتابى ، وأثناء عمله التقى بفتاة إنجليزية تعمل سكرتيرة لدى جهاز المخابرات فوقع فى حبها ، وكانت هى أول وأعظم حب فى حياته .. كانت الفتاة تدعى إيريس بيك .. قرر التقدم للزواج منها ، ولكن أسرتها رفضته بشدة لأنه يهودى !! حاول بكل جهده التأثير على حبيبته ولدهشته وجدتها بدورها تبتعد عنه وتتجنبه ، فأصيب بخيبة أمل شديدة وسيطر عليه اليأس والإكتئاب والحزن .. ومن خلال هذا الحزن الشديد أصبح عميلاً للمخابرات السوفيتة !!

ذهب إلى عمه هنرى كوريل يثبه شكواه ويلتمس لديه العزاء والسلوى فأستغل العم الداهية الفرصة وأوحى إلى ابن أخيه بخير وسيلة للإنتقام لكرامته المهدرة ومداواة جراحة الملتهبة .. الإنضمام للثوار الأحرار والعمل لنصرة الثورة العالمية .. أنها الشعارات الخلابة التى جذبت الآلاف من قبله إلى المعسكر الشيوعى ، وكان موقف بليك فى غاية الخطورة .. فهو يعمل بالفعل ضمن صفوف المخابرات البريطانية وستصبح له قيمة عظمى لدى السوفيت ، فعليه أن يعمل بكل طاقته ليصل إلى منصب حيوى يمنحه الفرصة لمعرفة الخفايا والأسرار حتى يكون ذا نفع للسوفيت !!

ظل يعمل بالمخابرات البحرية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، تمت ترقيته إلى رئيس لوحدة مخابرات صغيرة فى هامبورج بألمانيا فأثبت كفاءة وأظهر نشاطاً مما دعا رؤسائه إلى نقله إلى المخابرات البريطانية ، ورحل إلى سيول بكوريا سنة ١٩٤٨ ، وكانت المنطقة حافلة بالإضطرابات والجواسيس من الشرق والغرب .

ذهب متخفياً تحت غطاء وظيفته الرسمية كنائب للقنصل الإنجليزى فى سيول، أما مهمته الحقيقية تأسيس مركز للمخابرات البريطانية فى سيول ، ولكن القوات المعادية من كوريا الشمالية أجتاحت البلاد وتم إلقاء القبض عليه هو وزملائه ووقعوا فى الأسر سنة ١٩٥٠ وقضوا عدة سنوات فى سجون كوريا الشمالية قبل أن تتم عملية تبادل للأسرى فى سنة ١٩٥٣ ويطلق سراح بليك ورفاقة .. كان فى أستقباله بعض رجال المخابرات البريطانية لسؤاله عما اذا كانت السلطات الكورية الشمالية قد عرفت صلته بالمخابرات فنفى ذلك نفياً قاطعاً ، وقال أنهم لا يعلمون عنه سوى أنه نائب القنصل البريطانى

والشئ المحير حقاً أن بليك التقى سراً فى هونج كونج ، وعقب الأفراج عنه ، بأحد رجال المخابرات السوفيتية والمثير للعجب أن يظل على ولائه للشيوعيين رغم ما ذاقه على أيديهم فى كوريا الشمالية الشيوعية !!

الإنتقام المروع

كانت الرغبة فى الأنتقام بداخل چورج بليك تفوق بكثير كل ما لقيه من عذاب وذل خلال سنوات الأسر فى السجون الكورية الشمالية ، فعاد إلى إنجلترا وهو أكثر تصميماً على إنزال العقاب بالمجتمع البريطانى الذى حرمه حبيبته.. عاد لمزاولة بعض الأعمال الكتابيّة فى قيادة المخابرات البريطانية لمدة بلغت حوالى سنتين ، ثم نقل إلى وظيفة هامة فى برلين وذلك فى سنة ١٩٥٥، وكانت برلين قد قسمت بين الحلفاء عقب هزيمة الألمان سنة ١٩٤٥، وكانت عمليات التجسس على أشدها بين الإتحاد السوڤيتى وحلفائه وبين الحلفا الغربيين.. كان بليك يتولى مسئولية إحدى أهم محطات المخابرات بالمنطقة .

وسنحت أول فرصة للإنتقام لبليك .. علم من خلال موقعه الخطير بأن المخابرات الإنجلوامريكية تقوم سراً بحفر نفق أسفل برلين الشرقية والغربية ، وهو ما سمى بعملية الذهب ، كان الغرض من حفر هذا النفق التنصت على أحاديث ومكالمات العسكريين السوڤيت وحلفائهم ، وهم يقيمون فى برلين الشرقية ، وقد أعد الأمريكيين أجهزة حساسة للغاية لالتقاط هذه المحادثات ..على الفور قام بليك بالإتصال بحلفائه السوڤيت ليخبرهم بما لم يتوقعوه على الإطلاق وليعرفوا ير النفق الجارى حفرى بعيداً عن الأعين .. قرورا ترك الأمريكيين والإنجليز يحفرون ، وجعلوا الأمور تبدو وكأنها تسير بطريقة طبيعية حتى أنتهى الحفر وظن الحلفاء الغربيين أنهم حققوا نجاحاً غير مسبوق سيجعل كل أسرار السوڤيت بين أيديهم ، كما قاموا بتعيين عدد كبير من الخبراء والمترجمين لتسجيل المحادثات وترجمتها فوراً .

وبدأت خيبة الحلفاء الغربيين تذداد يوماً بعد يوم بعد ما لمسواقلة حصيلة المعلومات التى تصل إليهم ، وعدم جدواها من الناحية العملية ، ومما ضاعف خيبتهم أن السلطات السوڤيتية أعلنت أن الحراس فى ألمانيا الشرقية عثروا بالصدفة على النفق فقامت يردمه !! وهكذا ضاعت الجهود

المحمومة والملايين من الدولارات سدى بسبب خيانة بليك والذى كان ما يزال فى بداية أنتقامه .

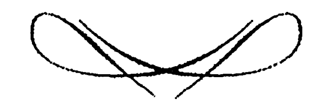
وكانت الضربة التالية هى إرشاد المخابرات السوفيتية إلى أسماء العملاء الأمريكيين والبريطانيين العاملين في برلين ، مما جعل كافة عمليات المخابرات الغربية تحقق فشلاً ذريعاً فى برلين ، وبحس رجال المخابرات المرهف أدرك القائمين على الأمر وجود خائن فى برلين ، وبدأ التحريات ، وذكر أحد العملاء الألمان أنه يشبته فى چورج بليك نفسه ، ولكن الأخير كان فى غاية الذكاء حينما تم أستجوابه .. قال بصورة طبيعية أنه مرغم على التعامل مع الأعداء حتى يكتشف أولئك العملاء المذدوجين ، فهذا أخطر أنواع العملاء على الإطلاق .

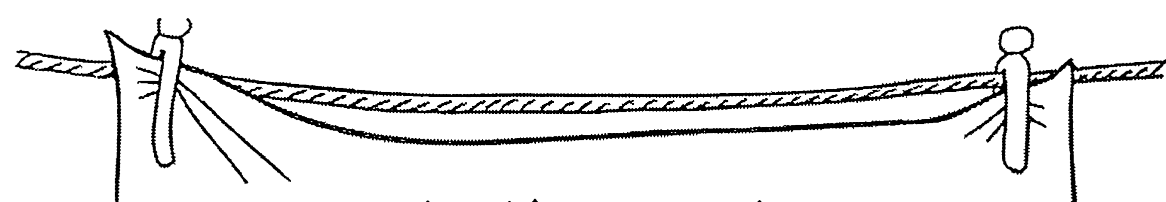
وقبل أن تتحقق شكوك المخابرات البريطانية فيه طلب النقل من برلين إلى الشرق الأوسط ، تمت الموافقة على طلبه ، وفى سنة ١٩٦٠ نقل للعمل فى لبنان .. ومن سوء حظة أن وجد فى بيروت عميل بولندى يدعى مايكل جولينوسكى ، كان عميلاً سوفيتياً ثم أصبح عميلاً أمريكياً ، أخطر جولينوسكى المخابرات الأمريكية بأن السوفيت أخترقوا المخابرات الغربية فى برلين من خلال عميلهم المخلص جورج بليك !! كانت المفاجأة مروعة بالفعل خاصة بعد ما قدم العميل البولندى وثائق تدين بليك .

أرسلت قيادة المخابرات البريطانية تستدعى بليك للعودة إلى لندن لأجتماع هام مع قيادات المخابرات.. لم يشعر بليك بالشك لأنه كان حذراً فى بيروت ويعلم أنه مراقب ..عندما وصل إلى لندن تم إلقاء القبض عليه فوراً وتمت مواجهته بالتهم الموجهة إليه ، ولدهشة الجميع أعترف مباشرة وبدون لف أو دوران !!بل أنه قدم أعترافات تفصيلية لكل جرائمة وخياناته طوال الأعوام السابقة ، وعلى رأسها كشف سر نفق برلين والارشاد إلى أكثر من ٤٠ عميلاً غربياً ثم إعدامهم ..جميعاً وغيرها من ألوان الخيانة

والغدر مما جعل المحققين فى دهشة بالغة ! وقد دكر بليك أيضاً أسم رفيقة فى الخيانة كيم فيلبى كما قدمنا .

أدين جورج بليك وحكم عليه بالسجن لمدة أثنان وأربعون عاماً ، ولكن .. لم يكن هذا هو الفصل الأخير من قصة بليك العميل العجيب ، لقد حكم عليه بالسجن فى سنة ١٩٦١ وقضى فيه ست سنوات قبل أن تحدث المفاجأة .. لقد هرب جورج بليك من سجنه بطريقه غامضة ، وقيل أن المخابرات السوفيتية هى التى ساعدته على الهرب ، وذكر أيضاً أسم أحد أعضاء الجيش الجمهورى الإيرلندى وكان صديقاً حميماً لجورج بليك ، ولكن من المستحيل أن يقدم أى شخص على تهريب سجين خطير مثل بليك إلا بمساعدة جهاز مخابرات على درجة عالية من المهارة والقوة .. كالمخابرات السوفيتية ، فقد تم نقل بليك سراً إلى موسكو وأعلن عن وصوله إليها فى ضربة موجعة للمخابرات الغربية ، وعاش حياة مرفهة وتزوج فتاة روسية وظل يتحدث عن خياناته على أنها أنتصارات كبرى .





الفصل الثالث

الجاسوس الذى أنقذ الإتحاد السوفيتى

- الحق ما شهدت به الأعداء
- الألمانى الروسى
- العميل الشيوعى
- الشبكة الأولى بالصين
- بين الشيوعية والنازية
- رجل متعدد الوجوه
- أخطر الأسرار تصل إلى موسكو
- الدكتور سورج وفنون الجاسوسية
- مراوغة الثعالب
- برقية غيرت مجرى التاريخ
- السقوط الرهيب
- الصدمة المروعة

الحق ما شهدت به الأعداء

ونحن بصدد الحديث عن أخطر أسرار الجاسوسية السوفيتية ، ونتناول بالتحليل حياة أهم جواسيس الـ K.G.B وأكثرهم تأثيراً فى مجريات الأحداث ، تحدثنا عن كيم فيلبى بإسهاب ، ثم تحدثنا عن جورج بليك ورأينا بعض أوجه التشابه بينهما ، كما أنهما كانا من العاملين بالمخابرات البريطانية العريقة ، وفى هذا السياق لا يمكننا إلا أن نتوقف أمام أحد أشهر وأعظم الجواسيس السوفيت والذى كان له دور خطير فى مجريات الأحداث خلال الحرب العالمية الثانية وهو ريتشار سورج ..

ومما يلفت الأنظار فيما يتعلق بريتشارد سورج هو أنه مامن مرجع يتناول الجاسوسية السوفيتية وأهم أعلامها إلا وتجده قد أفرد عدة صفحات للحديث عن سورج ، كماأن سورج يعد من أشهر الجواسيس على مستوى العالم بين جميع الجنسيات نظراً لما كان يملكه من مواهب وقدرات هائلة ، وما قدمه للإتحاد السوفيتى من جلائل الأعمال وعظيم النصائح والتى أنقذت الجيوش السوفيتية من الدمار كما سنرى بعد قليل .

ومن الطبيعى أن يعتبر سورج من أعظم الشخصيات فى الإتحاد السوفيتى ويلقى ألواناً من الإجلال والتكريم لم يلقها أحد قبله ، أما أن يشيد به قادة وزعماء العالم الغربى فهذا ما يعد عجيباً ، وإن دل على شئ فيدل على براعة سورج كجاسوس لا مثيل له ولا نظير ..

فنجد رئيس مخابرات القائد العظيم لجيوش الولايات المتحدة ماك آرثر يقول عنه : (لو أن الحلفاء أطلعوا على المعلومات التى كان يرسلها ريتشارد سورج إلى موسكو لتغير مجرى الحرب العالمية الثانية تغيراً كلياً) .

ويقول الجنرال ماك آرثر أيضاً عن سورج :

(إن قصة سورج لتعتبر من أروع الأمثلة على الجاسوسية الفذة الناجحة)

ومما يذكر لسورج أنه من أصحاب العقول الخلاقة المبدعة ، وانه أستطاع تأسيس أكبروأهم وأقوى شبكة تجسس عرفها العالم فى ذلك الوقت للعمل فى خدمة الإتحاد السوڤيتى ، وظلت الشبكة تواصل عملها بنجاح لعدة سنوات ، وضمت إليها عدد كبير من أصحاب المناصب الرفيعة والشخصيات الهامة.. وخلال تسعة أعوام كاملة نجحت شبكة سورج نجاحاً ساحقاً فى الحصول على أدق وأخطر الأسرار من مصادر لا يتوقعها أحد ، ونقلت هذه الأسرار ببراعة مذهلة وفى أوقات قياسية إلى موسكو ، فى وقت لم يكن العالم يعرف ثورة الإتصالات التى نشهدها اليوم ، وكان الأمر يعتمد فى بعض الأحيان على الجهود البشرية وإستخدام العملاء فى القيام بنقل المعلومات والرحيل لآلاف الأميال فى ظروف شائكة وأخطار محدقة .

ومن أطرف الأمور أن شخصية ريتشارد سورج قد تحولت إلى شخصية أسطورية من فرط إعجاب العالم به ، وأستلهمها كتاب المغامرات وقصص الجاسوسية فى نسج عشرات الروايات المثيرة ، وتحولت الكثير منها إلى أفلام سينمائية ناجحة، وكما حدث للكثير من الشخصيات الشهيرة والغامضة فى نفس الوقت، فقد أدعى البعض فى حقبة السبعينات والثمانينات من القرن العشرين أن ريتشارد سورج لم يمت ، وأنه ما يزال على قيد الحياة بعد أن نجا من الموت !! وقد ظلت الكثير من الأسرار المتعلقة بهذا الجاسوس الشهير محفوظة لدى أجهزة المخابرات لسنوات طويلة حتى تغيرت تماماً ظروف العالم ولم تعد هناك أية حاجة إلى الإبقاء على أسرار العقود الماضية فى طى الخفاء ، فبدأت تلك الأسرار فى الظهور وحلت الكثير من الألغاز العالقة بالأذهان .. فلنبدأ الحديث عن ريتشارد سورج من البداية .

الألمانى الروسى

ولد ريتشارد سورج فى باكو عاصمة أذربيجان والتى كانت خاضعة

للإتحاد السوفيتى حتى عام ١٩٩١، ولد سورج سنة ١٨٩٥ الوالد المانى وأم روسية ، وتحدد بعض المراجع مولده فى الرابع من أكتوبر .. كان والده يعمل مهندساً لدى شركة المانية تنقب عن البترول فى منطقة القوقاز، وهكذا نرى أن الأبن جمع بين الدماء الألمانية والدماء الروسية كما ورث الكثير من الصفات المميزة فى والديه !!

قبل أن يصل سن الصغير إلى مرحلة الإلتحاق بالمدرسة كان والداه قد عادا إلى العاصمة الألمانية برلين ، حيث ألحقاه بمدارس عالية تلقى فيها دروس الوطنية الألمانية التى تمجد الوطن وتدعو للتضحية بالنفس والمال فى سبيله والعمل على رفعه شأنه ، وكان الجميع يدينون بالولاء للقيصر الألمانى فى ذلك الوقت ويعتبرونه رمزاً لمجد ألمانيا وعزتها وشموخها ، ومن ناحية أخرى نلمح أحد الخيوط الهامة والتى تقودنا لفهم التحول العظيم فى شخصية سورج وأتجاهاته المستقبلية .. فقد كان جده لوالده يعمل سكرتيراً لمؤسس الفكر الماركسى فى العالم كارل ماركس ، وأعجب الصغير بجده إعجاباً شديداً وتلقى عنه أول وأهم المبادئ الشيوعية .. تلك المبادئ التى أنتشرت فى أنحاء العالم خلال العقود الأولى من القرن العشرين ، وتوجت النظرية الماركسية بإعلان دولة الإتحاد السوفيتى عام ١٩١٧ ، وانتهجت النهج الماركسى وعملت على نشره فى أنحاء العالم .

نشأ ريتشارد سورج حاد الذكاء تبدو على وجهه بعض ملامح القسوة والثقة الزائدة بالنفس ، عرف بسرعة الغضب ، كانت لديه قدرة هائلة على كتمان ما يخفيه من أسرار رغم إقباله على الشراب فى عام ١٩١٤ نشبت الحرب العالمية الأولى وكانت ألمانيا طرفاً أساسياً فيها، فتطوع ريتشار سورج للقتال فى صفوف الألمان ضمن عشرات الآلاف من الشباب ، لقى إصابة أبعدته عن ميدان القتال لفترة ، وعندما شفى عاد للقتال مرة أخرى ، وفى هذه المرة أيضاً أصيب وأضطر لترك

هذه المرة أيضاً أصيب وأضطر لترك ميدان القتال .. انكب على الدراسة بشغف فالتحق بجامعات برلين وهامبورج وكييل ، وفى عام ١٩٢٠ حقق أنتصاراً شخصياً بحصوله على درجة الدكتوراة فى العلوم السياسية من جامعة هامبورج .. عمل بالتدريس لمدة عامين ثم كصحفى بالعديد من الصحف والمجلات الألمانية ، وكانت تلك الفترة من حياته هى التى حددت ميوله وأتجاهاته إلى حد كبير .

أنكب ريتشارد سورج على المطالعة بشغف ، ووجد نفسه يميل إلى مؤلفاته كارل ماركس وربما يعود هذا إلى ما غرسه جده فى نفسه منذ سنوات طفولته الأولى ، ووجد أن الشيوعية الدولية هى تطبيق عملى لنظريات ماركس فأعتنق الشيوعية بالفعل ، وإلى جانب هذه القراءات فقد أظهر سورج موهبة فذة وهى قدرته على تعلم اللغات وأجادتها ، فتعلم اللغة اليابانية والفرنسية والروسية بالإضافة إلى اللغة الصينية ..وكانت أجادته لكل هذه اللغات بالإضافة إلى الألمانية بالطبع .. من أهم عوامل نجاحه كجاسوس محترف يتعامل مع عملاء من مختلف الدول ويتحدثون بلغات متباينة .

ويعد ريتشارد سورج من المؤسسين للحزب الشيوعى الألمانى وبدأ نشاطه الواسع عبر مختلف الأقطار وأظهر براعة منقطعة النظير فى التخطيط والعمل والتعامل مع الكثيرين ، ثم تأسيس الحزب الشيوعى الألمانى فى سنة ١٩١٩ ، وكان سورج أحد القوى المحركة التى لا تهدأ بالحزب ، وواصل العمل والنشاط المحموم بغية جمع أكبر عدد من الأنصار والمؤيدين لحزبة ، وأظهر حماساً شديداً للأفكار الشيوعية والإتجاهات الثورية والنظرية الماركسية مما لفت إليه بشدة أنظار الشيوعيين الكبار فى الإتحاد السوفيتى ، وقد تفرغ للعمل الحزبى .. عرف السوفيت الكثير من ماضى ريتشارد سورج وعن أصوله الروسية ، بالإضافة إلى ميوله الشيوعية وقدراته الفذة فقرروا الأستفادة منه إلى أقصى درجة .

العميل الشيوعى

تلقى سورج دعوة من زعماء الحزب الشيوعى السوفيتى فى عام ١٩٢٤ للسفر إلى موسكو والتدرب فى الحزب الشيوعى السوفيتى !! قدم أستقالته من الحزب الشيوعى الألمانى وسافر إلى موسكو ليصبح عضواً فى اللجنة المركزية للحزب ، وخلال ثلاث سنوات تلقى سورج الكثير والكثير عن الشيوعية والثورة العالمية .. وأيضاً عن فنون الجاسوسية .. لقد أصبح ريتشارد سورج قلباً وقالباً يدين بالولاء للإتحاد السوفيتى ويعتبره وطنه الأول .. تماماً مثل كيم فيلبى وجورج بليك ، أصبح عضواً فى منظمة الكومنترن ذات النفوذ الكبير على كافة الدول الشيوعية فى العالم .

وبدأت مهمته كجاسوس دولى وعميل شيوعى غير عادى فى سنة ١٩٢٧، حيث كانت رحلته الأولى إلى العديد من الدول مثل إلسويد والدنمرك وفرنسا وإنجلترا وغيرها ..كان يمارس نشاطه فى التجسس تحت ستار العمل الصحفى ، فهو أيضاً بارع فى الصحافة والكتابة وقد مارس هذا الفن لبعض الوقت قبل أن يتفرغ للحزب الشيوعى الألمانى وتواصل نجاح سورج خلال عامين قضاهما فى دول أوربا حيث كان عمله الأساسى هو الدعاية للشيوعية بين المنظمات المحلية وذلك بصورة تبعد عن المظاهر الرسمية بحيث يبدو الأمر تلقائياً وعفوياً ، ولم يكن بأستطاعة المخابرات السوفيتية العثور على شخص بمثل كفاءة ريتشاردسورج أو نشاطه الجم ، وبالإضافة إلى ذلك كان سورج يعمل بصفة منتظمة على تذويد موسكو بأهم المعلومات التى تدخل فى نطاق التجسس وأعمال المخابرات من جمع المعلومات السرية عن الأسلحة والجيوش والأساطيل والتوجهات السياسية والتيارات الأجتماعية وأفكار الشعوب ..أجاد سورج إلى حد مذهل لعب دور الصحفى البسيط المراسل لمجلة ألمانية صغيرة .. فهذا العمل يتيح له البحث والتقصى عن الحقائق والأجتماع بأشخاص ذوو أهمية ودراية ، والذهاب إلى هيئات رسمية

وحكومية للحصول على المعلومات الصحفية !! يعد سورج هو أحد القلائل الذين مارسوا أعمال التجسس ببراعة بالإضافة إلى أعمال الدعاية والتشجيع لبناء المنظمات الشيوعية المحلية ، وقد نجح فى كلا النشاطين ، أما حجته فى ذلك فهى أنه لو تم الجمع بين أعمال التجسس والمخابرات السرية مع أعمال تشجيع المنظمات المحلية فإن هذا يعنى أنكشاف الجميع إذا ما سقط أحد لأعضاء وأنكشف أمره.. وقد وجد زعماء الكومنترن أن أقتراح ريتشارد سورج يتميز بالوجاهة وبالتالى تم العمل به .. فى نفس الوقت لم يداخل المخابرات السوفيتية أدنى شك فى حقيقة ميول وأتجاهات ريتشارد سورج رغم أن أصله ألمانى ، أو بمعنى أدق نصفه ألمانى ، فقد عمل بنشاط وأخلاص وكفاءة وعزيمة لا تضاهى ، وكان دائماً هو الروح المحركة والقوة الدافعة للأمور فى كل مكان عمل به ، وهذا ما حدا بالقيادة السوفيتية إلى الأستعانة به فى الإنطلاق إلى آفاق أكثر سعة ، والزج به فى أنشطة هى الأهم بالنسبة للدولة السوفيتية خاصة وأن ريتشارد سورج يجيد التحدث والتعامل بعدد كبير من اللغات الأوربية وأيضاً اللغات الشرقية كالروسية والصينية واليابانية .

الشبكة الأولى بالصين

طلب ريتشارد سورج الإلتحاق بالمخابرات السرية للجيش الأحمر السوفيتى ، والمعروفة بالمكتب الرابع ، وكان يرأسها هيئة أركان حرب الجيش .. وقد ظل يعمل بها حتى النهاية .. أوكلت إلى سورج مهمة ضخمة وحيوية للغاية وهى السفر إلى شنغهاى وتأسيس شبكة للمخابرات السرية فى الصين بهدف دعم الأمن القومى السوفيتى وتأمين الحدود الصينية والحصول على المعلومات والوثائق عن التعاملات مع الدول الغربية ورحلات وحمولات السفن ، وطبيعة وخجم القوات الغربية العابرة على متن السفن

وغيرها من المعلومات الهامة .. وكان سورج خبيراً فى نوعية المعلومات الهامة التى يجب عليه الوصول إليها وإرسالها إلى موسكو .

أرسل سورج إلى شنغهاى بالصين فى عام ١٩٣٠ بصحبة شخص غامض يدعى اليكس كرئيس للبعثة السوفيتية ، وعامل لاسلكى ألمانى يدعى وينجارت ، كان المطلوب منهم هو تأسيس شبكة للمخابرات فى الصين مقرها شنغهاى ، وبعد حوالى ستة أشهر من بدء العمل رحل رئيس المكتب فأصبح ريتشارد سورج هو الرئيس ، أسس الشبكة على أساسى قوى من العلم والخبرة والمعرفة عقب أن جاب بلاد الصين ودرس عادات أهلها وثقافتها والإتجاهات الفكرية بها والعوامل البيئية والأجتماعية .. لقد أصبح سورج بالفعل خبيراً فى شئون الصين ساعده على ذلك أجادته للغة الصينية ، ومما يذكر هنا أن الكثير من الصينين واليابانين قرروا أن ريتشارد سورج أستطاع أن يفهم العقليات الصينية واليابانية والشرقية بصفة عامة أكثرمما فعل أى شخص أوربى آخر، ولاشك أن جذوره الشرقية والمتمثلة فى أمه الروسية كان لها دور كبير فى هذا النجاح ، وكان يضع فى حسبانه تاريخ تلك الشعوب وعاداتها وتقاليدها مما مكنه من الأقتراب من قلوب وعقول هذه الشعوب .

ومن جهة أخرى عقد سورج علاقات صداقة وطيدة مع الكثيرين من الوطنيين الصنيين والوافدين من الدول الأسيوية والأوربية وكانوا خير عون له فى مهامه السرية ،أحبه الجميع لثقافته العالية وحكاياته الطريفة وأحاديثه المتعة ، وبمهارة يحسد عليها نجح سورج فى تأليف شبكة تجسس شيوعية بالصين، كانت هى الأولى من نوعها ، ولم يكن وسط هذه الشبكة أى مواطن سوفيتى ..فكانت الشبكة مؤلفة من ستة عشر عضواً بينهم خمسة يابانيين وألمانى بالإضافة إلى فتاة أمريكية شيوعية تدعى أنييس سميدلى، وتعد من أهم الشخصيات التى أرتبطت بسورج وبأعماله السرية خلال لسنوات

التالية ، بالإضافة إلى الياباني أوزاكي هوزيمي الذي سيصبح الساعد الأيمن لسورج خلال عمله الخطير والهام في اليابان خلال سنوات الحرب العالمية الثانية .. لقد حقق الأثنان نتائج غير مسبوقة في عالم التجسس .. ولكنهما لقيا نهاية بشعة .

كان كل من أوزاكي هوزيمي وأنييس سميدلي يخفيان مهامهما الحقيقية في العمل مع المخابرات السوفيتية تحت ستار العمل كمراسلين صحفيين .. تماماً كما يفعل سورج ، عرفت أنيسس سميدلي بالتعصب للشيوعية وإعلان المقت للأنظمة الرأسمالية الغربية رغم أنها أمريكية ، وقد جمع بين الياباني هوزيمي والأمريكية سميدلي صداقة عميقة وحقيقية لسنوات طويلة .

أما آوزاكي هوزيمي فكان صحيفاً يابانياً ذو ميول شيوعية قوية ، ولديه خبرة كبيرة بالشئون الصينية .. تخرج في كلية الحقوق بجامعة طوكيو وكان زميلاً لعدد كبير من رجال السياسة والمال في اليابان ، وطد علاقاته بهم وكانوا من أهم عوامل نجاحه فيما بعد هو وسورج خلال العمل باليابان ، أمتهن هوزيمي الصحافة كوالده ورحل إلى شنغهاي كمراسل لإحدى الصحف وذلك في عام ١٩٢٨، وكان مثل سورج مولعاً بالشئون الصينية فراح يكتب المقالات الصحفية التي تدور حول الصين ، وفي نفس الوقت كان شيوعياً مثل سورج فأنضم إلى شبكته بالصين كما أوضحنا ، وكان يذود سورج بكافة المعلومات المطلوبة عن الصين ، وقد أنحاز هوزيمي إلى الشيوعية بسبب كراهيته للنزعة العسكرية اليابانية وميله للفكر الشيوعي كوسيلة لتحقيق العدالة الإجتماعية التي يفتقدها العالم ، ذلك بالإضافة إلى تأثير انييس سميدلي عليه ..من أهم أدوار هوزيمي صداقته مع الأميركونوي الذي تولى منصب رئاسة الوزارة عدة مرات ، وسوف نعود إلى هذا الحديث مرة أخرى خلال أستعراضنا للشبكة اليابانية .

وهكذا حقق ريتشارد سورج نجاحاً كبيراً في ثاني مهمة كبرى تكلفه بها

المخابرات السوفيتية ، وهى تأسيس شبكة سوفيتية للجاسوسية فى بلاد الصين .. ثم أستدعائه للعودة إلى الإتحاد السوفيتى ليبدأ فصلاً جديداً ومثيراً من فصول قصة حياته العجيبة والحافلة بالإثارة والمفاجآت .

بين الشيوعية والنازية

لم يكن ريتشارد سورج شخصاً عادياً على الإطلاق ، بل كان من أمهر وأبرع الجواسيس الذين عرفهم العالم ، وسوف نلمس هذا بوضوح عندما نعلم بخطواته القادمة ..أستدعته المخابرات السوفيتية وطلبت منه الأستعداد للذهاب إلى اليابان.. كان ذلك فى عام ١٩٣٢ وكان اليابانيون يمتلكون قدرات عسكرية كبيرة ويتأهبون لإحتلال المزيد والمزيد من الأراضى والدول الأسيوية ، وبدأوا بالفعل حملتهم العسكرية فى منطقة منشوريا وتوغلوا فيها ، ومما يذكر أن اليابان قد أرتكبت الكثير من الجرائم فى حق الشعوب خلال نهجها الأستعمارى حتى هزيمتها المروعة فى نهاية الحرب العالمية الثانية .

بدت روسيا فى غاية القلق من النوايا التوسعية اليابانية ، ولذلك كانت الحاجة ماسة لديها لمعرفة حقيقة تلك النوايا ، فالعالم يشهد توتراً متصاعداً والأمور فى أوربا تسير إلى الأسوأ عقب أستيلاء النازيين على الحكم فى ألمانيا وبدء ظهور القوة الألمانية وتصاعدها تدريجياً ، ثم التحالف بين العملاقين اليابانى والألمانى .. ومن سوء حظ الأتحاد السوفيتى ..انه كان محصوراً بين الاثني، فليس فى استطاعته خوض القتال على الجبهة اليابانية فى ذات الوقت، كما أن الأطماع التوسعية للدولتين غير خافية عن أبصار زعماء الاتحاد السوفيتى وهكذا كان الدور الملقى على عاتق ريتشارد سورج فى غاية الأهمية ، وهو معرفة حقيقة النوايا لدى الحكومة اليابانية وأهدافها العسكرية .. قضى ريتشارد سورج وقتاً طويلاً فى الإعداد للعملية القادمة فى اليابان ، فالأمر جد مختلف عن الشبكة الصينية ، والصعوبات

أشد والخطر على الأتحاد السوڤيتى بات وشيكاً .. وهداه عقله الخارق إلى حيلة بارعة ما كانت لتخطر لأحد سواه .. لقد قرر أستغلال جنسيته الألمانية في الدخول إلى اليابان كمواطن ألمانى، وهو بلاشك سيلقى الإستقبال الطيب لأنه قادم من الدولة الحليفة لليابان، وهكذا لعبت الأقدار دورها فى إكمال حلقة الجاسوسية السوڤيتية .

عاد سورج إلى ألمانيا فى عام ١٩٣٣ وكانت الخطوة الأولى التى قام بها هى تقديم أوراق الأنضمام للحزب النازى الألمانى ، والذى وصل إلى الحكم فى هذا العام بالتحديد بزعامة أدولف هتلر .. قبل طلبه فوراً وأستغل سورج ذلك فى تحقيق خطته طويلة المدى فالتحق بالعمل كمراسل صحفى لعدد من الصحف والمجلات الألمانية فى اليابان .. ولعل الكثيرون يتساءلون كيف تمكن سورج من عمل كل ذلك ؟ بالطبع لا تعرف تفاصيل ما حدث ، ولكن شخصية غير عادية كسورج لا يستعصى عليها الإتيان بالعجائب ، وبذل سورج جهوداً كبيرة لكى يظهر أمام المجتمع الألمانى كنازى مخلص للنازية ، ولا أحد يعرف كيف نجح فى خداع المخابرات الألمانية المعروفة بالدقة الشديدة فى حقيقة ميوله الشيوعية !!

حصل ريتشارد سورج على بطاقة العضوية فى الحزب النازى ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد أستطاع بطريقة ما إقناع السفير الألمانى فى اليابان أن يطلبه للعمل معه ، وبالفعل أرسل السفير الألمانى يطلب إيجاد وظيفة لسورج باليابان .. فى السادس من سبتمبر عام ١٩٣٣ وصل إلى ميناء يوكوهاما باليابان وقضى هناك بعض الوقت يعد العدة للخطوة القادمة ، ثم أتجه إلى العاصمة طوكيو حيث أستأجر مسكناً بأحد الأحياء الراقية أستعداداً لمزاولة عمله كصحفى ، وبدا سورج متألقاً وسط السفارة الألمانية والنادى والجالية الألمانية باليابان ..أحترمه الجميع لسلوكه المهذب ولثقافته الواسعة .

وهكذا تمكن ريتشارد سورج من الظهور بمظهر مختلف تماماً عن حقيقته كشيوعى مخلص ، وبدا مستعداً تماماً للعمل الخطير الذى تم تكليفه به .

الشبكة الثانية باليابان

أظهر سورج ألواناً من البراعة والدهاء والقدرة على العمل والتصرف والتخطيط خلال عمله باليابان لإنشاء شبكة الجاسوسية اليابانية .. فلم يعلم أى شخص بحقيقة نواياه ولا بأهدافه ، وهكذا كان سلوكه فى حياته .. فعندما قرر الرحيل من ألمانيا إلى اليابان أتجه أولاً إلى الولايات المتحدة ثم كندا وأخيراً وصل إلى ميناء يوكوهاما ليقضى به بضعة أيام كسائح ألمانى ، حتى يقنع من براقيه بأنه يتصرف بطريقة عادية لا تختلف هى أى أنسان بسيط ..حرص سورج على إخطار المخابرات السوفيتية يتحركاته أولاً بأول ، فبعد أن أستقر فى طوكيو ووطد علاقاته مع أعضاء السفارة الألمانية هناك وجمع حوله عدداً من خيرة الأصدقاء ، ورجال السياسة والدبلوماسيين ورجال الأعمال بدا مستعداً للعمل ، أما المخابرات السوفيتية فقد قررت أن ترسل إليه عدداً من العملاء البعيدون تماماًعن الشبهات ، فصدرت الأوامر لبعض العملاء المميزين فى لندن وباريس والولايات المتحدة وغيرها من الدول بإعداد حقائبهم والرحيل فوراً إلى اليابان للعمل تحت إمرة ريتشارد سورج الذين لم يسمعوا باسم من قبل !! منْ أهم معاونيه برانكودى فوكليتش الصربى الذى كان يعمل فى خدمة الكومنترن فى باريس ، وكان يبدو شبيهاً بالألمان تماماً وحصل على جواز سفر بمهنية مصور صحفى بمجلة فرنسية ..أستقبله سورج وأستأجر له شقة فى ضواحى طوكيو تم تجهيزها بعرفة سوداء على أنها غرفة لتجهيز الصور ، بينما هى فى الحقيقة مجهزة لتصوير المستندات والوثائق وطبعها على أفلام خاصة دقيقة الحجم يسهل حملها فى أماكن سرية وتهريبها إلى موسكو غبر شنغهاى أو أى طريق آخر ، كما تم

إخفاء جهاز إرسال متقدم بهذه الشقة أيضاً .

ومن الأشخاص المهمين أيضاً والذين أرسلتهم المخابرات السوفيتية ليكونوا تحت إمرة سورج ، رجل يابانى يدعى مياجى يوكوتو ، وكان شيوعياً متعصباً، عاش سنوات فى الولايات المتحدة وأنضم للحزب الشيوعى الأمريكى قبل أن يتم تجنيده لخدمة الأتحاد السوفيتى وليصبح من العملاء محل الثقة .. تعمد سورج أن تبدو الأمور فى صورة طبيعية تماماً ، فهو يلتقى بمساعديه وسط الأصدقاء من الألمان وغيرهم ومن الصحفيين ورجال الأعمال ويتم تبادل الأحاديث والآراء بين الجميع ثم يلتقى برجاله بطريقة سرية وفى أوقات مختلفة مما لا يتيح مجالاً أمام الشبهات والتقولات ، وهكذا كان ريتشارد سورج يتميز بالدقة والبراعة فى أعمال التجسس وفى التخطيط والتدبير لكل ما يضطلع به من أعمال ومهام .

نجح سورج نجاحاً كبيراً فى التسلل إلى أكبر رأس فى السفارة الألمانية باليابان ، حيث أصبح صديقاً حميماً للمحلق العسكرى الألمانى يوجين أوت والمعروف بنفوره من النازية ، وقد تمت ترقية أوت بعد ذلك ليصبح سفيراً لألمانيا فى اليابان ، وأدرك سورج فى وقت مبكر مدى كفاءة الرجل وثقة الألمان به مما يعنى أنه سيصبح يوماً فى أحد المراكز الرفيعة ، ولذلك عمد على تقوية صلته به .. وقد كان ليوجين أوت دور خطير فى إمداد شبكة سورج بأخطر الأسرار كما سيأتى ذكره .

ألم سورج سريعاً بكافة المعلومات عن اليابان وتاريخها وعادات أهلها وتقاليدها الراسخة، وكذا جاب البلاد طولاً وعرضاً تحت ستار عمله الصحفى فعرف كل شئ عنها ووعاه فى ذهنه اليقظ وذاكرته الحديدية ، وكتب العديد من المقالات عن اليابان نالت إعجاب الجميع، بداخل اليابان وفى الخارج أيضاً، وكان هذا سبباً آخر لتعلق بوجين أوت به ، فهو يستقى منه كافة المعلومات عن اليابان بصفته خبيراً فى هذا المجال ، وهكذا أصبح

أهم رجل فى السفارة الألمانية كالخاتم فى أصبع سورج يحركه كيف يشاء .

لم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أن سورج أصبح صديقاً لأهم رجال السفارة الألمانية بطوكيو ، ومنهم مدير المخابرات الألمانية المخيفة (الجستابو) الكولونيل چوزيف ميسنجر الذى كان يطلعه بدوره على أخطر الوثائق والأسرار الألمانية وهو واثق من نزاهته وإخلاصه ، وهكذا أصبح الجميع يتسابقون لإمداد سورج بالمعلومات التى تذهب على الفور إلى موسكو ، فى مقابل أن يمنحهم سورج خبراته ومعلوماته .

ومن أهم أركان شبكة الجاسوسية التى ترأسها سورج فى اليابان الألمانى ماكس كلوزين ، وكان يشغل رتبة ميجور فى الجيش الألمانى قبل أن يتم تجنيده فى المخابرات السوفيتية ، وهو خبير فى اللاسلكى والإتصالات، وكان من أهم أعوان سورج فى توصيل الرسائل إلى موسكو.. درس كلوزين فن الراديو واللاسلكى فى ألمانيا ومارس هذا العمل لعدة سنوات قبل أن ينضم لسلاح الأشارة الألمانى ، وبعد تسريحه من الجيش أنضم للمخابرات السوفيتية كعامل لاسلكى وخبير إتصالات .

رجل متعدد الوجوه

أن وصف الرجل المتعدد الوجوه لينطبق بحذافيره على ريتشارد سورج ، الذى يبدو أمام الألمان كألمانى مخلص ونازى أصيل ، ويبدو أمام اليابانين خبيراً فى شئون اليابان والشرق الأقصى.. واسع الأفق.. غزير المعلومات .. وأمام الصحفين لامعاً وكاتباً لماحاً مجيداً.. وأمام رؤسائه الشيوعيين عميلاً بارعاً وجاسوساً لا مثيل له ومن الصعب أن يكتشفه أحد.. وهو كذلك بين أصدقائه يتمتع بالحب والتقدير والأحترام ... ورغم براعة الألمان ودقتهم وعدم أنخداعهم بسهولة فقد كانوا طوع بنان سورج من السفير إلى أصغر موظف بالسفارة الألمانية !! وعقب أنكشاف أمر سورج صدم الجميع صدمة هائلة ،

وقيل أن الوحيد الذى شك فيه كان هو الملحق البحرى ليس لأشتباهه فيه ولكن لأنه لم يكن يستلطفه !! وبدأ سورج العمل الجاد عام ١٩٣٤بأن أرسل إلى صديقه الحميم اليابانى أوزاكى هوزيمى أحد مساعديه وهو مياجى يوكوتو من المعروف أن هوزيمى كان ساعده الأيمن فى إعداد وتأسيس شبكة التجسس الروسية فى الصين كما قدمنا .

كان هوزيمى قد أصبح متشاراً للوزارة .. التقى به سورج فى أحد الحدائق العامة وكأن الأمر حدث بمحض الصدفة !!أخبره بأن عليه العمل بجدية للحصول على معاونة البعض من داخل وزارة القصر الإمبراطورى، وأن هذه هى تعليمات القيادة فى موسكو، وكان هوزيمى بارعاً للغاية .. فلم يجند شخص واحد من داخل القصر بل أستطاع تجنيد عشرة أشخاص من اليابانيين سواء عن طريق الأقناع بالشيوعية أو الأغراء بالمال الكثير أو المزج بين الأثنين ، وتميزت أختيارات هوزيمى بالحكمة والدقة ، فلم يضم إلى الشبكة إلا من يثق فيه تمام الثقة ، وهكذا أستمرت الشبكة الرهيبة لسنوات طويلة دون أن يتم أكتشافها ، لم يكن سورج يلتقى بكل أعضاء شبكة التجسس ، بل يلتقى بأوزاكى دى فوكليتش ويوكوتو وكلوزين إمعاناً فى الحرص والحذر.. فى عام ١٩٣٥ قام سورج بزيارة إلى أروبا بحجة رد زيارة رؤسائه الصحفيين ، أما فى الحقيقة فقد كانت وجهته الأتحاد السوفيتى لحضور قمة الكومنترن وتلقى تعليمات جديدة بخصوص شبكته للتجسس ، وأيضاً لتقديم ما لديه من معلومات وأسرار.. كان فى غاية الدهاء والبراعة فى تحركاته .. وصل أولاً إلى نيويورك بجواز سفر ألمانى ، وهناك أستبدله بأخر يحمل تأشيره الدخول للأراضى السوفيتية ، فذهب عن طريق برلين ثم عاد إلى اليابان ، بعد أن تلقى الأوامر بتأسيس شركة تجارية لبيع الآلات الكاتبة ، وكانت ستاراً لإخفاء عمليات التجسس والإلتقاء مع العملاء.. لم يشعر أحد بما فعل سورج رغم خطورته الشديدة ورغم المراقبة والحرص من قبل كافة الأجهزة الأمنية فى تلك الفترة التى تصاعدت فيها حدة التوتر

الدولى إلى درجة الغليان ، فهى الفترة التى سبقت نشوب الحرب العالمية الثانية .. وهكذا بدت الشبكة اليابانية تحت رئاسة الداهية ريتشارد سورج على أهبة الإستعداد للحصول على أخطر المعلومات وأكثرها فائدة للإتحاد السوفيتى خلال صراعة المرير مع الحليفيين اليابان وألمانيا النازية .

أخطر الأسرار تصل إلى موسكو

نشبت الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر من عام ١٩٣٩ عندما اجتاحت الجيوش الألمانية بولندا مهددة السلام والأمن فى كل ربوع أوربا ، فأعلنت أنجلترا وفرنسا الحرب على ألمانيا وأعقب ذلك أمتداد لهيب الحرب إلى كل مكان فى أوربا عبر المحيط الهادئ حيث أشعلت اليابان المنطقة وبدأت فى تنفيذ خططها التوسعية فى آسيا والمحيط الهادئ .. وعقب أندلاع الحرب أرسل بوجين أوت الصديق الحميم لسورج يطلب تعيين الأخير ملحقاً صحيفاً بالسفارة الألمانية للحاجة الماسة إلى جهوده ! وبالفعل تم تعيين سورج فى الوظيفة وأصبح دخوله إلى مكتب السطير يوجين أوت شيئاً معتاداً ، وكان أوت قد أصبح سفيراً لألمانيا باليابان ، ونظراً للتوتر البالغ فى العلاقات الدولية ولسعة أطلاع سورج على كافة الأمور السياسية والأجتماعية ، فقد كان السفير يعرض عليه أخطر الوثائق وأكثرها سرية ليبدى فيها رأيه !! وقد نهج نهجه كل العاملين بالسفارة ، ولذلك كانت كل الأسرار تصل إليه بسهولة وبدون عناء يذكر فيقوم بإبلاغها إلى موسكو بدوره !!

من المهام التى أسندت إلي ريتشارد سورج إذاعة البلاغ الرسمى الألمانى عن الحرب فى أروبا وبث الأنباء الرسمية التى يتلقاها من ألمانيا، وعقب ذلك يتناول طعام الأفطار مع السفير يوجين أوت ويستعرضا معاً ما تلقاه السفير من تعليمات المانية وتوجيهات ، ويطلب رأى سورج فى كيفية التصرف !!وهكذا كان سورج يحصل على أدق وأخطر الأسرارالألمانية واليابانية

فيحفظها فى ذاكرته ،أو يقوم بتصويرها بآلة دقيقة يحملها مستغلاً ثقة الجميع به ، وكان يحصل على الأسرار اليابانية من القصر الإمبراطورى من خلال باقى أفراد الشبكة وعلى رأسهم أوزاكى هوزيمى الذى وصل إلى معلومات فى غاية الخطورة والسرية قلبت موازين الأمور تماماً .

ومن المفارقات العجيبة أنه تمت دعوة ريتشارد سورج لحضور أجتماع خطير للغاية لرؤساء أركان حرب الجيش والبحرية والطيران اليابانيون بنظرائهم من السفارة الألمانية ، وكان الأجتماع قد عقد لمناقشة وضع هيكل (الميثاق الثلاثى) وطلب من سورج إبداء رأيه فى العديد من الأمور ، بل أنه قد تم ترشيحه لحضور حفل التوقيع النهائى على الميثاق ولكن برلين أرسلت مندوباً آخرإلى هذا الحد وصلت الثقة والتقدير لريتشارد سورج !! وكان السفير يوجين أوت يقول دائماً أن نصائح سورج لا تقدر بمال وعمد إلى الاسترشاد بتلك (النصائح الذهبية) فى كل وقت ..ولم يكن الدكتور ريتشارد سورج يبجل أبداً بإسداء نصائحه للسفير ولكل من يحتاج إليها فى السفارة !! فكانت البرقيات والتقارير والأقتراحات (السرية) تمر عبر سورج !!

ومن المؤكد أن موسكو كانت تقدر ريتشارد سورج تقديراً خاصاً وتهتم أهتماماً بالغاً بما يحصل عليه من معلومات خطيرة هو وأعضاء شبكته البارعين ، بل أنهم يعتبرون أقوى شبكات التجسس السوفيتية المنتشرة ، فهو يعد بحق أستاذ فى فن الجاسوسية وله بصمات وعلامات لا تمحى .

الدكتور سورج وفنون الجاسوسية

لم يكن معاونى الدكتور ريتشارد سورج وأعضاء شبكته أقل منه كفاءة وإخلاصاً للشبكة التى يعملون بها ، فقد نجح أوزاكى هوزيمى فى أن يصبح مستشاراً لرئيس الوزارة الإميركونوى ويحصل منه على أخطر أسرار اليابان ، أما برانكودى فوكليتش فقد حقق أنتصارات عديدة حيث أصبح

صديقاً حميماً لمندوب وكالة الأنباء البريطانية روتير ومن خلال هذه الصداقة عرف الكثير من الأسرار التى تخفيها جدران السفارة البريطانية فى طوكيو ، ليس هذا فقط بل أنه أصبح مندوباً رسمياً لوكالة الأنباء الفرنسية هافاس ، وبذلك صار بإمكانه النفاذ إلى داخل السفارة الفرنسية بطريقة طبيعية ، عدا ذلك فقد كان صديقاً لأحد الصحفيين الأمريكيين فى طوكيو ويدعى دومان ، ومن خلاله تمكن من معرفة الكثير والكثير مما يدور فى السفارة الأمريكية .. وهكذا تمكن العميل الصربى وأحد كبار معاونى سورج من الوصول إلى آفاق جديدة وأقتحام أسوار منيعة .. وكان كل هذا السيل من المعلومات والأسرار يصل إلى موسكو فى أسرع وقت ويمثل كنوزاً لا تقدر بمال .

بلغ الحرص والتنظيم والدقة بسورج مبلغاً عظيماً ، فكان يلتقى بمعاونيه فوكليتش وهوزيمى ويوكوتو وكلوزين فى المطاعم أو البارات أو الحدائق العامة أو فى منزله .. كان يلتقى بهم بصفتهم صحفيين وزملاء فى المهنة ، وعقب نشوب الحرب وإمعاناً فى الحرص والتموية والهروب من أى رقابة محتملة كانوا يلتقون فى أماكن سرية ولا يجتمعون جميعاً أبداً ، كما كانوا يعمدون إلى تغيير السيارات والأماكن التى يلتقون فيها ، وكذلك لا يجعلون مواعيد اللقاءات ثابتة .. ولايدخلون إلى أماكن الإجتماعات إلا عقب تلقى أشارات خاصة سواء إشارات ضوئية أو حركية أو صوتية .

ومن أهم هذه الأحتياطات عدم ذكر الأسماء الحقيقية أبداً خلال المحادثات التليفونية ، وكذا عدم ذكر أسم موسكو ، ويتم أستخدام أسماء مستعارة للأشخاص والمدن ، بالإضافة إلى ذلك فقد كان يتم إبدال الشفرة الخاصة بهم كل فترة ، وعدم الإحتفاظ بأجهزة الإرسال على وضعها المعد للإرسال ، بل يتم تفكيكها لأجزاء وإخفاء كل جزء فى مكان مختلف حتى لا تصبح قرينة إدانه إذا ما تعرضوا للنفتيش، وروعى كذلك أن يتم إرسال

الرسائل اللاسلكية من أماكن مختلفة وفى أوقات مختلفة وفى أوقات غير ثابتة ، ومن أهم أحتياطات الأمن التى حرص عليها سورج عدم وجود أى روسى فى شبكته !! وكذلك إحراق كافة الأوراق والوثائق عقب أنتهاء الغرض منها وعدم الأنتظار ولو للحظات حتى لا يحدث ما لا يحمد عقباه .

من أهم مبادئ سورج أن الجاسوس يجب أن يكون مثقفاً وملماً بالنواحى النفسية والثقافية والأجتماعية للمجتمع الذى يعمل فيه حتى يمكنه أستنباط النتائج وعدم السؤال أو الالحاح فى المعرفة المباشرة ، كما أنه لايثق فى كفاءة المرأة كجاسوسة لما فطرت عليه من نقاط ضعف ، ولكن يمكن أستخدامها للوصول إلى أغراض محددة أو لدفع الرجال للثرثرة والبوح بما لديهم من أسرار ، ووضع سورج أساساً لأختيار الجاسوس الناجح وهو ضرورة أختياره وفقاً للعقيدة والأقتناع وليس تحت ضغط المال وأغراؤه ، فالجواسيس الذين يعملون من أجل الشيوعية لم يبحثوا من المال وتحملوا الكثير من أجل الحصول على المعلومات والأسرار ، أما الباحثين عن المال فقد سقطوا فى شباك الأعداء أو تراجعوا عن إكمال مهامهم ، وذكر أيضاً أن على الجاسوس اليقظ ألا يسرف فى أنفاق المال ولا يبدو فأثرياء الحرب حتى لا يلفت إليه الأنظار ويثير من حوله التساؤلات عن مصادر تلك الأموال ، وقارن سورج بين جواسيس الأتحاد السوفيتى وجواسيس الولايات المتحدة والدول الغربية وبين أن الفئة الأولى هم الأكثر كفاءة لوجود مبادئ يدافعون عنها ولا يعملون من أجل المال فقط كأعضاء الفئة الثانية .

مراوغة الثعالب

ويذكر سورج كيف كان يتصرف ويتحرك عند وصوله إلى اليابان لأول مرة فى مهمته الخطيرة ، فهو يعلم جيداً أنه سيتعرض لمراقبة لصيقة ودقيقة بصفته أجنبى جاء للإقامة الطويلة كصحفى ، وأن مهنة الصحافة من أكثر

المهن التى تخفى وراءها الجواسيس .. فماذا فعل ؟

ظل لعدة أشهر هادئاً لا يشارك فى أى نشاط أجتماعى على الإطلاق ، وعندما قام أحد الصحفيين اليابانيين فى السفارة الألمانية بالإتصال به ودعوته إلى أحد الفنادق أدرك أن وراء هذه الدعوة شئ غير عادى .. فقد تزلف إليه مدير الفندق وحذره بطريقة مستترة قائلاً أنه (أى المدير) كان يعمل جاسوساً للجيش الألمانى ، ولكن سورج لم يعر حديثه أهتماماً وضحك ببساطة .. وفى مرة أخرى قدم إليه الصحفى اليابانى زميل له ينتمى إلى الحركة الشيوعية ويتحدث اللغة الروسية فأبدى سورج جهله التام بهذه اللغة ، وأيقن أن هذه الصحفى اليابانى ما هو إلا آداة فى يد المخابرات اليابانية تختبر بها الضيوف والوافدين لتعرف حقيقتهم ، وكان سورج فى غاية الدهاء فلم يقع فى الفخ .. كان يعلم جيداً أن البوليس يتحرى عنه ويفتش ثيابه ومتاعه فى غيابه فلم يترك أدنى أثر يدل على أعماله وأنشطته ، وحرص على العمل فى النور ومقابلة الأصدقاء فى أماكن عامة وظاهرة للعيان .. وقد بلغت به الجراءة حداً عجيباً .. فكان يعمد إلى إخفاء أغراضه السرية فى آخر مكان يخطر ببال الألمان أو اليابانيين !! كان يخفيها فى السفارة الألمانية ذاتها ، وذلك إذا ما تطلب الأمر رحيلة لبضعة أيام وخشيته من قيام البوليس اليابانى أو المخابرات بتفتيش أغراضه ، ومن ناحيتها كانت السفارة الألمانية ترحب به وبما يتركه لديها كأمانة !!

ومن فنون الجاسوسية التى ذكرها سورج وعمل بها الكثيرون من بعده وسائل التعارف بين الجواسيس الذين يلتقون لأول مرة أن يدور حوار بسيط بين الأثنين تذكر فيه أسماء لبعض الأماكن فيرد الطرف الثانى بذكر أسماء متفق عليها مثلاً يقول الأول للثانى : مرحباً بك ..أرى أنك قادم من فرانكفورت بألمانيا فيقول الثانى .. بل أننى قادم من بروكسل ببلچيكا .. أو أن يذكر الأول للثانى أسماً فيكمله الثانى فيقول الأول هل أرسلك هارى

جونز ، فيقول الثانى : هل تعنى هارى جونز اليس ؟

وهكذا يتعارف الأثنان فى حوار طبيعى لا يستغرق ثوان معدودات ولا يستلفت الأنظار .. أما للإتصال بين الجواسيس بداخل نفس المدينة لتبادل المعلومات وإرسال الرسائل فيمكن تبادل الكتب بين شخصين كأن يتصافح كأنهما صديقان ويقدم أحدهما لأخر (الكتاب الذى طلبه)، وكذلك شراء تذكرتين فى السينما أو المسرح وترك إحداهما للزميل سراً ثم الدخول إلى دار السينما أو المسرح كل بمفرده ، وخلال العرض يتم الحصول على على المعلومة بطريقة سرية وسريعة .. ويقول ريتشارد سورج عن فنون الأتصال بالأخرين والتى يعد أستاذاً فيها :(كنت أرتب الأتصال أيضاً فى المتاجر العامة عند خزينة معينة ، وكنت أحمل فى يدى بعض مناديل أشتريتها بينما يحمل الطرف الأخر الجوارب وكنت إذا أتصلت فى المطاعم أطلب لوناً من الطعام ، ويطلب الشخص المعلوم لوناً أخر ثم نأخذ فى التحدث عنهما .. وأحياناً كنت أدخل المطعم فى يدى غليون ويكون فى يد الطرف الآخر سيجار كبير وتكون إشارة التعارف هى إشعال الدخان ثم البدء فى التدخين فى نفس الوقت ، بعد أن يكون كل منا قد عرف صاحبه .. وفى بعض الأحيان كانت أطوى الصحيفة التى كنت أطالعها بطريقة معينة حالما يدخل الطرف الآخر إلى المطعم وعندما لا يكون هناك وقت محدد أو مكان معين متفق عليه تستخدم الإعلانات فى الصحف لتهيئة المقابلة).

ومن أهم خطوات سورج للمراوغة وإخفاء حقيقة إتجاهاته أنه كان يحرق جوازت السفر المزورة التى يسافر بها إلى الإتحاد السوفيتى حتى لا يعلم أحد أنه زار هذه الدولة ويشتبه فيه .. وكانت الوسيلة المعتادة التى ينتقل بها أحدهم إلى الأخر الأفلام أو الوثائق السرية هى علبة السجائر ، فيقدمها للآخر بطريقة طبيعية، فيعلن المتلقى أنه يحب هذا النوع من السجائر، فيقول الأول يمكنك الأحتفاظ بها فلدى منها الكثير.. وبهذه الوسيلة كان يتم نقل

أخطر الأسرار والوثائق إلى موسكو دون أن يتمكن أحد من ملاحظة شيء أو يساوره الشك على الأقل فقد كانت هذه الوسائل حديثة ومبتكرة في ذلك الوقت ، وكان الداهية ريتشارد سورج هو صاحب كل هذه الأبتكارات .

برقية غيرت مجرى التاريخ

واصلت الشبكة إمداد الأتحاد السوفيتي بالأسرار و الوثائق والمعلومات الخطيرة عقب أندلاع الحرب العالمية الثانية ، وكانت الإطراف المعنية مشتركة في الحرب وهي اليابان وألمانيا والأتحاد السوفيتي ، ونشط سورج ورفاقه في الوصول إلى مكامن هذه الأسرار والنفاذ إلى الحقائق الخفية وإرسالها إلى الأتحاد السوفيتي الذي كان لديه معلومات كاملة عن ما تملكه اليابان من أسلحة ومدافع وكميات من الذخائر وطائرات وسفن وبوارج حربية ، وكذا عن الصناعات الهامة في البلاد من سيارات وطائرات وصناعات أستراتيجية كالحديد والصلب ، بالإضافة إلى معلومات عن عدد الجنود وكفاءتهم القتالية ، والمخزون الأستراتيجي من البترول والغذاء وغيرها من أخطر المعلومات في زمن الحرب .

ويعد أخطر التقارير التي نجح سورج في الحصول عليها وإرسالها بصورة عاجلة إلى الأتحاد السوفيتي التقرير عن الأستعداد الألماني لغزو الأتحاد السوفيتي ، وكان بمثابة مفاجأة مذهلة للجميع ، ففي عام ١٩٤١ كان الأتحاد السوفيتي مرتبطاً بمعاهدة عدم أعتداء مع ألمانيا وقعها كل من ستالين وهتلر بغرض تفرغ كلتا الدولتين للجبهات الأخرى ، ولذلك فقد كان إقدام ألمانيا النازية على غزو الأتحاد السوفيتي يعد خيانة للمعاهدة وطعناً في الظهر .. أرسل سورج برقية سرية عاجلة للغاية يحذر فيها الزعيم السوفيتي جوزيف ستالين من الغزو الألماني قائلاً : (يقوم الجيش الألماني بحشد من ١٧٠ إلى ١٩٠ فرقة على الحدود السوفيتية ، وفي ٢٠ يونية

سيقوم بالهجوم العام علىٰ طول الحدود).

بعث سورج بهذه البرقية بالشفرة فى شهر مايو في عام ١٩٤١، وقد وقعت الهجوم بالفعل فى ٢٢ يونية ليثبت صحة تقارير سورج ، وكان ستالين فى موقف شديد الحرج .. فقد كانت هناك قوات ضخمة على الحدود الشرقية السوفيتية مرابطة هناك للتصدى للغزو اليابانى المحتمل ولا يستطيع ستالين تحريك جندى واحد منهم حتى لا يستغل اليابانيين الفرصة ويخترقوا الحدود السوفيتية ، وفى نفس الوقت كان الهجوم الألمانى الكاسح شديد الوطأة على الجيوش السوفيتية فسقط الضحايا من الجنود والمدنيين بعشرات الآلاف ووقف الألمان على مشارف العاصمة موسكو يتأهبون لأقتحامها ودارت معارك رهيبة على طول الجبهة ، وراحت ألمانيا تضغط على اليابان لشن هجوم كبير من جهة الشرق لتحطيم مقاومة الجيوش السوفيتية ، وعندما نقل سورج هذه الأنباء إلى ستالين شعر الأخير بالفزع فهذا يعنى الدمار التام للإمبراطورية السوفيتية .. وتابع سورج الأمور عن كثب بينما ظلت الجيوش السوفيتية تحاول المقاومة والتصدى للضربات النازية الساحقة .. وتساقط المزيد من الضحايا.

فى شهر يولية أرسل سورج يقول أن القوات اليابانية بدأت الهجوم الكبير جنوب شرق أسيا ، وتوالت التقارير عن أهتمام اليابان بتلك المنطقة مما يعنى أبتعاد الخطر تدريجياً عن الأتحاد السوفيتى ، كان أوزاكى هوزيمى يحصل على أخطر المعلومات المتعلقة بهذا الموضوع من أصدقائه أصحاب المناصب الرفيعة ، ولذا فلم يكن هناك شك فى صحتها ، وظلت مشاعر القلق والخوف والرعب تسيطر على قلوب الروس رغم التقارير المطمئنة بعض الشئ .. فلا يوجد شئ مضمون فى زمن الحروب خاصة بعد أن تنكر هتلر للمعاهدة الموقعة مع الإتحاد السوفيتى وجاءه غازياً بجحافل جيوشه الجبارة .. وأخيراً تنفس ستالين الصعداء .. فقد وصلته البرقية

المنتظرة من سورج ..ففي ٥ أكتوبر أرسل إليه سورج يقول أنه لا يوجد خطر من غزو اليابان للأتحاد السوفيتي عبر الجبهة الشرقية ، لأن كل جهودها حالياً مركزة على جنوب أسيا.

لم يكن ستالين قبل ورود هذه البرقية يجروء على سحب جندي واحد من الجبهة الشرقية ..أما الآن فعليه أن يبادر بسحب معظم تلك القوات بطريقة سرية للتصدي للقوات النازية وبلغت القوات التي تم نقلها للتصدي للنازيين حوالي مليوني جندي !! وبدون مبالغة فقد أحدثت هذه البرقية السرية التي أرسلها سورج تحولاً تاريخياً .. لقد أستطاعت الجيوش السوفيتية التماسك والصمود أمام الألمان ، ثم بدأت تكيل الضربات الساحقة لهم ، بالإضافة إلى قدوم فصل الشتاء الرهيب الذي لم يشهده الألمان بمثل هذه البشاعة ، بينما كان الروس معتادين عليه ، أنهم يقاتلون على أرضهم .. وبدأت الأنتصارات السوفيتية تتوالى حتى لقى الألمان أبشع الهزائم في الأتحاد السوفيتي وفقدوا عشرات الآلاف من جنودهم و كميات هائلة من الأسلحة والعتاد كما أسر منهم الآلاف .

السقوط الرهيب

رغم عبقرية سورج وقدراته الفذة وأبتكاراته غير المسبوقة في عالم الجاسوسية .. رغم كل ذلك فقد سقط هو وأفراد شبكة بعد أكثر من ثماني سنوات من العمل السري و النجاح المستمر في نقل أخطر الأسرار إلى الأتحاد السوفيتي .. ومن العجيب أن حاسته السادسة دلته على قرب النهاية فطلب من المخابرات السوفيتية أستدغائه إلى موسكو ولكن سبق السيف العزل .. ورغم سقوط الدكتور ريتشارد سورج بين أيدي المخابرات اليابانية إلا أن النتيجة النهائية كانت لصالح الأتحاد السوفيتي .. فقد أنجز سورج الكثير وقدم ما لم يقدمه أحد من قبل وفي أخطر

المراحل في حياة الدولة .

ذكرنا أن سورج شعر بضرورة مغادرة اليابان عند هذا الحد بعد أن حصلت الشبكة على أخطر وأهم المعلومات ولعله كان يستشعر الخطر بطريقة ما ، فما من شبكة جاسوسية أستطاعت الأستمرار في عملها لفترة طويلة لأنها تتكون من أفراد لهم علاقات متشعبة ولابد أن يحدث خطأ ما يكشف كل شيء .. وهذا ما حدث .

لقد سقطت شبكة سورج بالصدفة البحتة وبدون قصد من أكتشفها كان هناك شيوعي ياباني يدعى ايتورتسو ، قبض عليه بتهمة القيام بأنشطة شيوعية سرية ، وكان أيتو زميلاً لأوزاكي في العمل ، فراح يذكر أسماء كل من يعرفهم من الشيوعيين ويعلن الندم على مسلكه، كان من بين الأسماء التي ذكرها أمرأة تعمل في خلية سورج تدعى كبتياشى تومو .

سبق أن ذكرنا تحفظ سورج قبل الجاسوسية النسائية ، ولكنه أضطر لضم المرأة وتدعى كبيتاشي تومو نظراً لصداقتها لمساعده المخلص مياجى يوكوتو ، حيث تعارفا في الولايات المتحدة ، وعندما ألتقى بها مياجى فى اليابان طلب منها جمع بعض المعلومات الضرورية ، وكان هذه بالطبع خطأ جسيم وقع فيه مياجي ، شعرت الفتاة بالشك تجاه مياجي وأنه جاسوس شيوعي .. وكان أيتو قد شعر بأن المرأة لم تعد ترحب بالشيوعيين وتتجنبهم خاصة عقب عودتها من أمريكا فساوره الشك في أمرها.، وقرر الأنتقام منها وأتهمها بالجاسوسية دون أن يخطر بباله لحظة واحدة أنه سوف يساهم في الكشف عن أخطر شبكة تجسس عرفها العالم حتى ذلك الوقت .

لم يبادر البوليس الياباني بإلقاء القبض على كبيتاشي تومو ، بل عمد إلى مراقبتها سراً حتى يعرف كل من تتصل بهم ، وعندما ألقى القبض علهيا تحدثت ببساطة عن الجميع ومن بينهم مياجي يوكوتو والمهمات التي كلفها بها دون أن تدري لماذا طلب منها ذلك ؟! وعلى الفور ألقى القبض على

مياجي فحاول الأنتحار وعلم البوليس أنه عضو في شبكة جاسوسية .. لم يصمد مياجي يوكوتو طويلاً للعنف الذي أستخدمته المخابرات اليابانية معه للحصول على أعترافاته ، فقد كان مريضاً بالسل .

وهكذا أدلى مياجي بأعترافات تفصيلية وتم القبض في منزله على الذراع الأيمن لسورج .. أوزاكي هوزيمي .. لم يعلم سورج بحقيقة الأمر ولكنه شعر بالقلق الشديد لأختفاء الرجلين ، و عندما ذهب إليه ماكس كلوزين لزيارته من منزله وجده مضطرباً لأول مرة منذ عرفه ،وشاركه كلوزين القلق خشية سقوط الشبكة كلها ، كما حضر إلى المنزل أيضاً برانكو دي فوكليتش وكان الوضع مثيراً للشك والقلق للجميع .. عندما غادر كلوزين منزل سورج أوقفه في الطريق ضابط ياباني وجه إليه عدة أسئلة مما أثار في نفسه الشك وعزم على التخلص مما لديه من أدوات التجسس وجهاز الإرسال ، ولكنه لم يفعل .. وأرجع هذه المقابلة إلى المصادفة .. ولكن قبل أن يستيقظ من نومه أقتحمت قوات البوليس منزله وألقت القبض عليه وقامت بتفتيش المنزل فعثرت على كل ما يدينه ويكشف الحقيقة الرهيبة .. وبعد قليل ألقى القبض على الدكتور ريتشارد سورج وعلى دي فوكليتش !!

الصدمة المروعة

كان الأعلان عن القبض على الدكتور ريتشارد سورج بمثابة صدمة مروعة للجميع .. في ألمانيا وفي السفارة الألمانية في اليابان وبين الأصدقاء اليابانيين أنفسهم ، وكذلك بين عشرات الأصدقاء الذين يعرفون سورج جيداً ويحبونه ويبادلونه الثقة .. أدرك كل منهم أنه كان آداة بين يدي جاسوس ماهر عرف كيف يحصل على كل ما يريد بأسلوب لم يسبقه إليه أحد من قبل .. وكان أكثرهم ذهولاً السفير الألماني في اليابان يوجين أوت ورجل الجستابو الكولونيل ميسنجر !! حاولاً التدخل للأفراج عنه برغم أن القبض

عليه تم بطريق الخطأ ، ولكنهما ما أن أطلعا على المضبوطات وعلى التحقيقات المبدئية حتى بدا عليهما الذهول .. فالأمر جد لا هزل فيه ، والرجل بالفعل كان رئيساً لأخطر شبكة جاسوسية عرفها العالم حتى ذلك الوقت .. تم أبلاغ الأمر فوراً إلى برلين حتى يتظاهر بعدم وجود علاقة لهما بسورج ، ولكن المسئولين الألمان علموا بالحقيقة من السلطات اليابانية .. أعد ملف كامل عن خيانات سورج وعن علاقاتته بالشيوعيين منذ سنوات طويلة وكان ما بالملف يعد مفاجأة .

أستغرقت المحاكمة بعض الوقت للوصول إلى كافة الحقائق ومعرفة باقي العملاء خاصة اليابانيين ، وكذلك الوصول إلى الدوافع التي دفعتهم إلى خيانة وطنهم ، ودهش سورج إلى حد كبير عندما وجد كلوزين يعترف بصراحة تامة ، وتعقبه أعترافات باقي أفراد الشبكة ، فأيقن من الهلاك وراح يدلى بأعترافات تفصيلية بكل شيء ، كما سجل أعترافاته بيده وعندما سئل عما دفعه إلى تحمل كل هذه المشاق قال : فعلت ذلك من أجل الأتحاد السوفيتي .

ولكنه أعلن أنه لم يسرق أسرار الدولة ، وأن كل ما حصل عليه كان معلومات متاحة للجميع وتمت مناقشتها على الملأ ، فلم يغش أحداً أو يحتال عليه للوصول إلى هذه المعلومات ، وذكر لهم أن المسئولين الألمان هم الذين كانوا يطلبون منه مساعدتهم في كتابة التقارير ويسترشدون برأيه !!

حرصت الحكومة اليابانية على أخفاء أمر محاكمة شبكة سورج عن الأتحاد السوفيتي لدواعي السرية .. حكم بالسجن المؤبد على كلوزين لتعاونه التام مع المحكمة ، وجدير بالذكر أن القوات الأمريكية أفرجت عنه عام ١٩٤٥ عقب أستسلام اليابان وأحتلال الأمريكيين لأراضيها .

أما سورج وأوزاكى فقد صدر عليهما الحكم بالأعدام ، ولم يفلح دفاعهما بأنهما حصلا على معلومات غير سرية ومتاحة للجميع ، وتم رفض

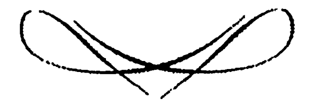
الأستئناف عام ١٩٤٤..

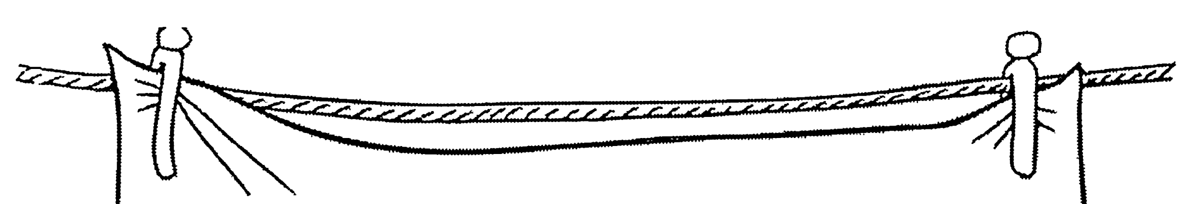
وتوفى مياجي أثناء المحاكمة لأشتداد المرض عليه ، وحكم على برانكو دي فوكليتش بالسجن المؤبد ، كما حكم على باقي أفراد الشبكة بالسجن عدد أقل من ذلك ، وقد تم الإفراج عنهم جميعاً في سنة ١٩٤١ كما حدث لكلوزين .

تحدد يوم السابع من نوفمبر لتنفيذ حكم الأعدام في كل من أوزاكي هوزيمي والدكتور ريتشارد سورج ..كانت البداية بهوزيمي الذي بدا رابط الجأش.. نظيف الثياب ..هادىء النفس.. ركع أمام تمثال بوذا ثم نهض يشكر الجميع ويتقدم إلى المشنقة بثبات .

وبعد دقائق جاء دور ريتشارد سورج الذي كان قد فرغ من كتابة وصيته قدم الشكر إلى كل من حوله لرقتهم في معاملته ، وتقدم نحو المشنقة بثبات وهو رافع الرَأس متزن الخطى ، لم يبد على وجهه أدنى شعور بالخوف والرعب .. وهكذا أنتهت حياة واحد من أعظم الجواسيس الذين خدموا الأتحاد السوفيتي بحبل المشنقة .

وقد ظل الأتحاد السوفيتي يذكر دائماً تلك الخدمات الجليلة التي قدمها سورج طوال سنوات عمله مع المخابرات السوفيتية ، وتكريماً له بعد موته فعلت الدولة معه ما لم تفعله إلا مع العظماء وكبار الشخصيات السوفيتية فقد أصدرت طابعاً تذكارياً يحمل صورته .. فكان أول طابع تذكاري يحمل صورة جاسوس !!





الفصل الرابع

المخابرات السوفيتية وسر القنبلة الذرية

- حالة الطوارىء القصوى
- خيوط العنكبوت
- السوفيتي الخائن
- عالم الغموض والسرية
- القوى المحركة
- العملية كاندي
- الهروب
- الصيد الثمين
- العميل السري أليكس
- المعامل السرية في كندا
- كلمة السر
- عودة إلى لندن
- سقوط الأقنعة
- أعترافات مثيرة

حالة الطوارىء القصوى

مع أقتراب الحرب العالمية الثانية من النهاية توصل العلماء الأمريكيين إلى أعظم سر حربي على الإطلاق .. وهو سر القنبلة الذرية .. ذلك الوحش المخيف الذي يتضاءل بجانبه كافة أنواع الأسلحة الفتاكة ، وتواصلت الجهود المحمومة في المعامل السرية ليل نهار حتى يتم الأنتهاء من أنتاج أول قنبلة ذرية ، وكان لابد من حسم الحرب على كافة الجبهات بعد أن تواصلت الحرب لأكثر من خمس سنوات حصدت فيها أرواح الملايين وأهلكت الأخضر واليابس وأنفقت خلالها مئات الملايين من الدولارات وشلت أذرع الأقتصاد العالمي وعاد العالم سنوات إلى الوراء .. ظن فريق من السياسيين أن الوصول إلى القنبلة الذرية سوف يكفل للعالم السلام والأمن وسوف يردع الدول الإستعمارية عن شن العدوان على غيرها .

وفاجأت الولايات المتحدة الأمريكية العالم كله بإلقاء أول قنبلة ذرية فوق مدينة هيروشيما اليابانية .. كانت اليابان قد رفضت الأستسلام وظلت تحارب رغم أستسلام حليفتها الكبرى المانيا وهزيمتها المدوية .. وفي لحظات سقط عشرات الآلاف من القتلى والجرحى والمشوهين ورأى العالم لوناً رهيباً من الدمار لم يتخيله أحد ، ثم تكرر مشهد الرعب بحذافيره عندما ألقت الطائرات الأمريكية بالقنبلة الذرية الثانية فوق مدينة نجازاكي بعد أيام من إلقاء القنبلة الأولى ، والتي رفضت اليابان بعدها الأستسلام .. وكانت النتيجة أستسلام المارد الياباني وركوعه طالباً الرحمة.. كان الأستسلام مذلاً فهو بلا قيد أو شرط ... وهكذا أنتصر صقور الحرب الأمريكيين وأثبتوا للجميع أن القنبلة الذرية كانت هي السلاح الفعال لهزيمة اليابان وفرض السلام بالقوة !!

وعلى الجانب الآخر كانت القيادة السوفيتية تنعم بالأنتصار على الألمان والأستيلاء على أجزاء شاسعة من الأراضي شرق أوربا مما يعزز قوة الأمبراطورية الشيوعية، ولكن هذه السعادة لم تدم طويلاً عقب توصل

الولايات المتحدة إلى سر القنبلة الذرية .. ذلك السلاح الفتاك الذي يضمن لمن يمتلكه السيادة والتفوق ، وكان القادة السوفيت يعلمون جيداً أن التحالف مع الدول الغربية كان تحالفاً مؤقتاً من أجل هزيمة العدو المشترك وهو ألمانيا النازية ، وعقب أندحار ألمانيا أصبح عدو الغرب اللدود هو الأتحاد السوفيتي .. ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يذكر فيها أسم القنبلة الذرية ، فقد هدد هتلر العالم بسلاح سري غير مسبوق ، وتناقل الكثير من الجواسيس المعلومات عن قنبلة غير عادية تحدث دماراً مهولاً ، وخلال سنوات الحرب لم يكن بوسع السوفيت التفكير في أنتاج القنبلة الذرية أو سرقة أسرارها ، بعكس الحال مع الأمريكيين والبريطانيين اللذان قررا أنتاج هذه القنبلة بأي ثمن قبل أن يصل إليها النازيين ، وبالفعل نجح الأمريكيين في ذلك .

جن جنون القيادة السوفيتية وأصبح الحصول على سر القنبلة الذرية هو الهدف الأعظم الذي يجب تحقيقه بأي ثمن وبأى قدر من التضحيات .. أنها مسألة حياة أو موت .. فماذا يحدث لو هددت الولايات المتحدة و الدول الغربية الأتحاد السوفيتي بالقنبلة الذرية ؟ أنها لا تملك أسلحة بنفس القوة تدافع بها عن نفسها .. وأعلنت المخابرات السوفيتية حالة الطوارىء وأعدت خططاً سرية للغاية للتسلل إلى المعامل السرية ومراكز الأبحاث التي أخفيت عن الأعين بعناية وذلك لسرقة تصميمات القنبلة الذرية ، ثم تجنيد عدد من أكفأ رجال المخابرات السوفيتية للتصدي لتلك المهمة الصعبة ، وكما ذكرنا في مواضع سابقة فإن المخابرات السوفيتية تتميز بالكفاءة والخبرة بالأضافة إلى البراعة الشديدة في العزف على وتر الشيوعية وأعتبارها طوق النجاة وطريق الخلاص من كل ألوان المعاناة الأنسانية ورفع الظلم عن المظلومين ، فكان عدد كبير من الجواسيس ينضمون للمخابرات السوفيتية عن أقتناع تام ويبذلون أرواحهم في سبيل الواجب !!

ومن أهم المزايا التي تمتعت بها المخابرات السوفيتية هى رد الفعل

السريع للأحداث ، فقد صدرت الأوامر بتنظيم وإحكام عملية سرقة تصميمات القنبلة الذرية ، وفي نفس الوقت كان لدى الأتحاد السوفيتي عدد كبير من العلماء النابهين في كافة المجالات بما فيها تصميم الأسلحة وتطويرها ، فكان مجرد الحصول على التصميمات السرية للقنبلة والمعادلات الأساسية والنسب الحرجة يعني إنتاج الأتحاد السوفيتي للقنبلة الذرية خاصة وأنه يمتلك ثروة عظمى من المواد المشعة اللازمة لإنتاج هذه القنبلة وقد جرت محاولات هامة خلال السنوات السابقة لسرقة هذه المعلومات الأساسية دون جدوى فتواصلت الجهود بلا أنقطاع .

خيوط العنكبوت

أستفادت المخابرات السوفيتية من كل الأخطاء السابقة في بناء أقوى وأخطر وأهم شبكة للمخابرات في تاريخها ، وهي شبكة متشبعة ومترامية الأطراف ، حيكت خيوطها بمهارة وألحق بها أهم العملاء في الجهاز العريق وحشدت لهذه الشبكة كافة الإمكانيات من أجل النجاح في المهمة الشاقةوهي سرقة تصميمات القنبلة الذرية بأي ثمن .. لم يكن عمل الشبكة العنكبوتية محصوراً بداخل دولة واحدة كما كان الحال في الشبكة الصينية أو الشبكة اليابانية ، بل أنه أمتد عبر قارتي أوربا وأمريكا بعد أن نما إلى علم المخابرات السوفيتية أن الولايات المتحدة تشترك مع أنجلترا و باقي الحلفاء في أنتاج القنبلة الذرية في سرية بالغة وبإستخدام كافة وسائل الخداع والتمويه .

ونفس الوقت كانت الولايات المتحدة تعلم جيداً أن محاولات التسلل إلى سر الأسرار الحربي لم ولن تنقطع فعملت على حماية المعامل والعلماء والفنيين بمختلف الطرق والوسائل ، وفرض رقابة صارمة على هذه المعامل وتعمد إقامتها في أبعد الأماكن عن مخيلة العالم أجمع .

ولكن .. وبرغم كافة الأحتياطيات والقيود التي وضعتها الولايات المتحدة وحلفائها على المعامل النووية وقع المحظور وتسربت أسرار القنبلة الذرية بالكامل إلى الأتحاد السوفيتي ، وظلت تنتقل إليه لمدة طويلة حتى أنكشف الأمر فجأة.. وبلا تدخل من أي جهاز مخابرات غربي.. بل لخيانة أحد العملاء السوفيت لوطنه بطريقة تراجيدية ..لم يصدق أحد من الدول الغربية ما حدث حتى رأوا كل شيء بأعينهم وسمعوا بآذانهم .. لقد كانت المعامل الأمريكية في آخر مكان يتوقعه العالم .. كانت في كندا .ولكن المخابرات السوفيتية علمت بذلك وأقامت مركزاً للتجسس في كندا أيضاً .

أما الذي قام بنقل السر الرهيب إلى المخابرات السوفيتية فهو آخر شخص يخطر ببال الطرفين .. الأمريكي والسوفيتي .. ولقد كان واحداً من أعظم علماء الذرة في العالم .. وهو بريطاني الجنسية !!

لقد كانت تلك المفاجآت المدوية فوق طاقة التحمل للزعماء الغربيين بصفة عامة وللمخابرات بصفة خاصة ، وعندما طالع العالم تلك الأخبار العجيبة لم يصدق نفسه .. فالأمر يبدو شديد الغرابة والعجب بما يفوق الخيال .. ومن سوء حظ الأمريكيين .. ومن حسن حظ السوفيت .. أنه قد تم أكتشاف الأمر بعد نجاح السوفيت في الحصول على السر الأعظم ، ووصول أخطر وأهم التصميمات إلى أيديهم وأيدي علمائهم الذين واصلوا العمل ليل نهار لتطبيق المعادلات والنسب السرية من أجل الوصول إلى الكتلة الحرجة التي تكفل لهم أنتاج السلاح الرهيب .. القنبلة الذرية .

أنها قصة عجيبة ومثيرة للغاية تبدأ بخيانة لا يتوقعها أحد وتنتهي بفضيحة مدوية .

السوفيتي الخائن

كانت الصدفة هي التي قادت الدول الغربية إلى الكشف عن أخطر شبكات التجسس السوفيتي خلال حقبة الأربعينيات ، وقد أستمرت الشبكة

تعمل بنجاح كبير لعدة سنوات دون أن تشعر بها أجهزة المخابرات الغربية حتى ظهر خائن سوفيتي ليكشف السر الرهيب ... هذا الشاب السوفيتي هو البداية للكشف عن تلك الشبكة وهو أيضاً جاسوس سوفيتي .

ايجور جوزينكو كان شاب روسي نابه ، مخلص للمبادىء الشيوعية وللحزب الشيوعي .. ولد في عام ١٩١٧ وأختارته السلطات للأنضمام إلى العملاء الخصوصيين ..أو الجواسيس ، فأنضم إلى إحدى مدارس الجاسوسية الروسية ثم وقع عليه الأختيار للرحيل إلى خارج الأتحاد السوفيتي في مهمة بالغة الأهمية .. كان عليه الذهاب للعمل في السفارة السوفيتية في كندا في وظيفة كاتب شفرة مدني ، أما وظيفته الحقيقية فهي وكيل للمخابرات السوفيتية في كندا .. كانت المهمة التي يمارسها هي كاتب شفرة مدني النظام الأتصالات الدبلوماسية في السفارة ، وهي وظيفة روتينية ، وقد أختير جوزينكو لهذه المهمة الحساسة والخطيرة بعد تحريات دقيقة عنه وعن ميوله السياسية والتحقق من ولاءه التام للحزب الشيوعي السوفيتي .

وصل جوزينكو إلى كندا في عام ١٩٤٣ ليتلقى أول وأكبر صدمة في حياته .. فقد ترك بلداً يعاني أهله البؤس والحرمان الشديد نظراً لظروف الحرب القاسية والحياة في ظل الشيوعية التي حرمت المواطنين كافة المتع و وسائل الترفيه ..كانت كندا رمزاً للثراء والجمال والرفاهية التي لم يتخيلها جوزينكو في أروع أحلامه ..أنها حياة أسطورية بالفعل ، ورغم أنه نجح في أختبارات عديدة من قبل المخابرات السوفيتية إلا أن ما حدث له لم يكن في حسبان الذين أرسلوه إلى كندا .. أو في حسبانه هونفسه.. أنها صدمه .. وأنبهار .. على حقيقة لم يكن يتخيل وجودها .. أن المجتمع المثالي ليس هو مجتمع الأتحاد السوفيتي الشيوعي المحكوم بالحديد و النار والخوف والرعب ..ذلك المجتمع الذي لا يملك أي شخص حرية التعبير عن رأيه وأنتقاد رؤسائه وحكامه .. وإذا ما حاول فعل ذلك فمصيره الحتمي إلى السجن ..

بل أن المجتمع المثالي الحقيقي هو المجتمع في دول الغرب مثل كندا .. فقد طالع بعينيه مقالاً لمواطن أجنبي يستوطن كندا ، ينتقد فيه الحكومة لأنشاءها طريق يضر بتجارته .. كما طالع المقالات التي لا يحصى عددها والتي تنتقد الحكومة والسلطة التنفيذية دون أن يخشى كاتبوها السجن ، بينما مواطنوه في الأتحاد السوفيتي يلقون في السجون وينفون إلى أصقاع سيبيريا لمجرد الشبهات ويدفعون ثمن أعمال وجرائم لم يرتكبوها ، بل ولم يفكروا فى أرتكابها يوماً !!

كانت هذه هي العناصر الأساسية التي حركت مشاعر أيجورجوزينكو بالإضافة إلى ذكائه الحاد وتطلعه إلى الحياة في عالم مثالي حقيقي وليس مزيف كما شعر مؤخراً .. وبرغم سنه الصغيرة في تلك الفترة فقد مرت به تجارب هامة مثل الأشتراك في الحرب العالمية الثانية كجندي أشارة ، وكذلك أنضمامه إلى مدرسة الجواسيس قبل أن يقع عليه الأختيار للرحيل إلى أقصى الغرب والأنضمام إلى الشبكة السرية للجاسوسية السوفيتية في كندا ، وكانت كما ذكرنا تتصدى لأخطر وأهم مسألة في حياة الأتحاد السوفيتي وهي سرقة تصميمات القنبلة الذرية .. وصل إلى كندا في يونية من عام ١٩٤٣، وكان معروفاً ببراعته الفائقة في التعامل بالشفرة ، وبالنسبة لنقل المعلومات والوثائق السرية تعد الأتصالات الشفرية هي عصب العمل .

ومنذ الأسبوع الأول لوصوله إلى كندا وهو يعيش صراعاً عنيفاً يعصف بكيانه عصفاً .. أنه صراع داخلي في عقله الذي أنتبه على حقائق مروعة .. تصاعدت حدة الصراع مع الأيام حتى قرر في النهاية أن يدع حداً لعذابه وأن يخون وطنه !!

عالم الغموض والسرية

كانت السفارة السوفيتية في كندا تعد مثالاً للغموض والسرية البالغين ، فهي لم تكن سفارة بالمعنى الفعلي ، بل كانت حقاً وكراً للجواسيس ، فيها

أجهزة تنصت حديثة ذات قدرات فائقة ، كما كانت تشرف على أكثر من ٢٠ نقطة تجسس سرية في كندا وشمال أمريكا، وبداخل السفارة كانت السرية هي عنوان كل شيء .. فهو يعمل في جناح مستقل عن غيره من الأجنحة ، وغير مسموح له بالأتصال بباقي أعضاء السفارة العاملين في مجالات أخرى ، وهو يعمل في القسم السري المعزول بأبواب حديدية مذدوجة وغير مسموح للسفير نفسه بالدخول إلى هذا القسم !! وعلم بعد ذلك أن هذا القسم السري يقوم بتنظيم عمل خمس خلايا للتجسس في أنحاء البلاد وفي الدول المجاورة أيضاً تحت ستار من الأعمال الدبلوماسية والتجارية والفنية والعلمية والأقتصادية والرياضية وغيرها من المجالات التي لا تثير أية شبهات .

وفي هذا الوقت بالتحديد صدرت الأوامر المشددة للخلايا الشيوعية ولشبكات المخابرات السوفيتية بالعمل المخلص والتضحية بكل شيء لتحقيق المهام الحيوية التالية :

- الحصول على تصميمات وأسرار القنبلة الذرية بأي ثمن وبكافة الطرق الممكنة بما في ذلك أستخدام العقيدة الشيوعية لإغراء الآخرين وحثهم على التعاون مع أخوتهم في الأنسانية وأنقاذهم من الهلاك والدمار .
- الوصول إلى الأسرار العسكرية للدول المتحالفة لتقدير مدى قوتها وأمكانياتها المستقبلية ، وهذا ما سيحدد ثقلها على الساحة الدولية وقت الحرب والسلم .
- تجنيد أكبر عدد ممكن من الجواسيس الشيوعيين في أنحاء العالم مع الحرص على الضرب على وتر الثورة العالمية والعدالة الأجتماعية والمساواة .
- تهيئة الرأي العام على المستوى الشعبي لتقبل الحكم الشيوعي والتطلع إليه كوسيلة للخلاص من الظلم الأجتماعي والحرمان .
- الألمام بميول وأتجاهات الشخصيات الهامة والمؤثرة في مختلف البلدان حتى يتم التعامل معها وفقاً لخطط مدروسة ووسائل جاذبة لتلك الشخصيات

- مراقبة العملاء خصوصاً أولئك الذين يخشى من وقوعهم تحت إغراء الآخرين ، حتى لا تتسرب الأسرار إلى المخابرات الغربية .

- وكان ايجور جوزينكو أحد الذين ساهموا في إفشاء أخطر الأسرار السوفيتية على الأطلاق موجهاً ضربة ساحقة للمخابرات السوفيتية وللدولة الشيوعية الكبرى بصفة عامة ،ولم يكن أحد يتصور أن يسلك جوزينكو هذا المسلك لاسيما وأنه قد أثبت جدارة وأظهر ألواناً من الطاعة والإخلاص في عمله السابق بالجيش السوفيتي ، ولكن ما حدث له كان نقطة تحول في تفكيره وأعتقاداته وأتجاهاته .. تم ذلك بصورة مفاجئة قلما تحدث لشخص من الأشخاص ، ويرجع هذا إلى تأثير الصدمة التي تلقاها من المقارنة بين الحياة البائسة الجافة المتقشفة في وطنه ..الأتحاد السوفيتي .. وبين حياة الرفاهية والوفرة والحرية الكاملة التي يحياها المواطن الكندي والغربي بصفة عامة .. لقد كان القمع والقهر على أشده في الأتحاد السوفيتي في ذلك الوقت ورغم ذلك تدعى أجهزة الإعلام الرسمية أن الأتحاد السوفيتي هو قلعة الحرية والديمقراطية !! ومن الأمور التي أثارت غيظ جوزينكو قيام العديد من الأشخاص بالتجسس على بعضهم البعض ، فكان منْ الطبيعي مثلاً أن يتجسس الأبن على الأب والأخ على أخيه و الصديق على أصدقائه .. حتى بداخل السفارة .. وكر الجواسيس .. كان الجميع يتجسسون على بعضهم البعض ويرسلون بالتقارير الحافلة بالمبالغات والأكاذيب إلى الوطن ، وبحكم عمله كخبير للشفرة كان أيجورجوزينكو يطالع تلك التقارير ويحتقر كاتبيها ، ويلعن الحياة في ظل هذه الدولة البوليسية التي أهدرت أدميته وحولت مواطنيها إلى إلى آلات صماء بلا مشاعر وأحاسيس .

كان الجنرال نيقولاي زابوتين الملحق العسكري السوفيتي بالسفارة الكندية يقوم بنشاط تجسسي واسع النطاق ، ويدير الشبكة ببراعة تحت ستار عمله الرسمي وحصانته الدبلوماسية وتعجب جوزينكو من مسلك رئيسه في التجسس على دولة صديقة مسالمة مثل كندا !!

القوى المحركة

كانت هناك عدة عوامل هامة هي التي دفعت أيجورجوزينكو للإقدام على الخطوة الهائلة نحو أعداء بلاده وإمدادهم بأخطر الأسرار التي لم يكن يتخيلها أحد على الأطلاق .. من أهم هذه العوامل أو القوى المحركة أحساسه بالظلم والغدر وعذاب الضمير من جراء التجسس على كندا الدولة الصديقة الودود التي تمد الأتحاد السوفيتي بالمعونات الغذائية والطبية ، وشعر بأن التجسس عليها يعد من قبيل الخيانة للأمانة و للدولة المثالية المحترمة .. حتى وإن كان المعنى بالتجسس الولايات المتحدة وبريطانيا.

والعامل الثاني ما سبق وأن تحدثنا عنه وهو الصدمة المروعة التي تلقاها عندما رأى الحرية الحقيقية والرفاهية و الوفرة بعكس الحياة في بلاده .

أما العامل الثالث وهو إذا صح فإنه يكون أهم العوامل التي دفعت جوزينكو إلى الأرتماء في أحضان كندا و الغرب بصفة عامة ، فمن المعروف لأي جهاز مخابرات أن كاتب الشفرة يكون مطلعاً على أخطر وأهم الأسرار و الوثائق بحكم عمله ، وهذا في حد ذاته يمثل خطراً كبيراً على أجهزة المخابرات ، بالإضافة إلى ضرورة تغيير كاتب الشفرة كل فترة كأحتياط للأمن ، وخلال فترة عمله كان جوزينكويشعر في كل لحظة من نومه أو يقظته بأن هناك من يراقبه ويعد عليه أنفاسه ويحصى خطواته ، مما جعله يشعر بالخوف والفزع .

أما أهم العوامل على الأطلاق فهو تسلمه خطاب أستدعاء عاجل للعودة للأتحاد السوفيتي بدون إبداء الأسباب .. كان ذلك فوق طاقة أحتماله ، وقد علم من همسات زملائه أن مصير كل من سبقوه من كتاب الشفرة هو العودة إلى الأتحاد السوفيتي ثم الأختفاء سراً بحيث لا يعلم أحد طريقهم ، فالسلطات السوفيتية لا تسمح لهم بالعيش وسط المواطنين السوفيت وهم يحملون أخطر وأهم الأسرار ، ومن المرجح أنها تعمد إلى قتلهم !!

تسلم جوزينكو هذا الخطاب في شهر سبتمبر من عام ١٩٤٤ للعودة إلى

موسكو (لمنافشة بعض الأمور) وأدرك أن النهاية قد أزفت ، ولكن من حسن حظه أن رؤسائه أعترضوا على هذا القرار بشدة نظراً لبراعة جوزينكو في أعمال الشفرة خاصة أن الحرب مازالت مستعرة في أرجاء العالم ، وأنه ليس هناك من يعوض غيابه في تلك المرحلة الصعبة .. ولذلك تقرر إرجاء رحيل جوزينكو إلى الأتحاد السوفيتي إلى وقت قريب .. وكان من أسباب قبول السلطات السوفيتية لقرار الإرجاء هو دخول الشبكة الجاسوسية في كندا إلى مرحلة حساسة للغاية ، وذلك لأن المعلومات السرية التي وصلت إليها تفيد بأن الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا تقومان بأبحاث سرية للغاية لصنع القنبلة الذرية ، وصدرت الأوامر الصارمة من قبل المخابرات السوفيتية إلى وكر التجسس في العاصمة الكندية اوتاوا بالوصول إلى سر القنبلة الذرية بأي ثمن ، وأطلق على هذه العملية الأسم الرمزي (العملية كاندي) .. جند كل أعضاء المخابرات في هذه العملية التي سيتحدد على ضوئها مصير الأتحاد السوفيتي في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية .

قرر أيجورجوزينكو العمل بسرعة من أجل جمع أكبر قدر من المعلومات والوثائق السرية حتى يمكنه الإقدام على الخطوة الهامة التي قرر أن يخطوها ..اللجوء إلى أحضان السلطات الكندية فإن الذهاب إليهم للتحذير مما يحدث في دار السفارة السوفيتية سيجلب إليه المتاعب ولن يجعلهم يصدقونه .. الوثائق فقط هي الدليل على صدق حديثه .. أذن فلتكن معه الوثائق حتى يتمكن من أكتسابهم إلى صفه .

كان العميل الرئيسي الذي يلاحظ جوزينكو تكرار أسمه في الوثائق البالغة السرية يدعى " اليكس " .. وهو بالطبع أسم حركى .. وقد أستلفت الأسم أهتمام جوزينكو ..

العملية كاندي

عزم جوزينكو على خيانة بلاده واللجوء إلى كندا وإمدادهم بأخطر

الأسـرار والوثائق ، فـراح يعـمل بنشـاط بـالغ ويعـرف جـيـداً مكان أخطر الوثائق ويحدد موضعها بدقة حتى يحملها معه لحظة الفرار .. عمل عقله بكامل طاقـتـه وأدرك أن الأمـر في غـاية الخطورة بما لم يكن يتـصـوره ، فالأمـر يتعلق بجهود العلماء الأمريكيين و البريطانيين من أجل التغلب على المشكلة الصـعبـة وهي تخصـيب اليورانيـوم وأنشطاره المتوالي ، بما يمثل نجاحاً عملياً في أنتاج القنبلة الذرية .. كانت الرسائل الشفرية التي يبعث بها إلى العملاء ، والجواسيس السوفيت تحمل تعليمات القيادة الصارمة بضرورة بـذل أقصـى ما لديهم من أجل الحصول على سر القنبلة الذرية .. وبعد أشـهر من المتـابعة و الرصـد للعملية كـاندي أدرك جـوزينكو حقيقة خطيرة للغاية ..

لقد وصل الجواسـيس السوفيت بالفعل إلى أخطر أسرار القنبلة الذرية وحصلوا على تفاصيل كاملة تملأ مئات الصفحات، من المعادلات والتفاعلات السرية للوصول إلى السر الرهيب .. والمفاجأة الأكثر دوياً هي أنهم حصلوا على تلك المعلومات الخطيرة من قلب المعامل ذاتها ومن أشـخـاص يعـملون بداخل برنامج القنبلة الذرية !!كما لاحظ جوزينكو أن معظم تلك المعلومات الهامة ترد من شخص أسمه الشفري اليكس فأدرك أنه أحد كبار العلماء العاملين في المشروع !! وتسـاءل عمن يكون هذا الرجل الغامض ؟! لقد بدأ يفكر في الأمر بكل أهتمام ووعي ويعيش لحظة بلحظة في الإثارة والتوتر و القلق .

دهش جوزينكو دهشة بالغة في صيف عام ١٩٤٥ حينما قدم إليه رئيسه نيكولاي زابوتين تقريراً شـفرياً ليبثـه إلى الأتحـاد السـوفـيـتي ، يذكـر في التـقـرير أنه قـد تم أخـتـراق البـرنامج النووي الأمـريكي بالكامل ، وأن كافةأسـراره قد أصبحت لدى الأتحـاد السـوفيتي .. أن هذا كـان آخر شيء يتوقعه أيجورجوزينكو ، كما أن أحداً في العالم لن يتوقع هذا حتى المواطن الأمريكي أو البريطاني لم يتـخيل وصـول علماء بلاده إلى سر القنبلة الذرية

ذلك السلاح المدمر .. الرهيب .. الذي يقتل عشرات الآلاف ويحدث دماراً مهولاً لم تعرفه البشرية من قبل ، وقد نجحت المخابرات السوفيتية في أختراق أهم وأكبر مراكز الأبحاث الذرية الأمريكية في لوس ألاموس بولاية نيومكسيكو ، وهو ما لم يكن يتخيله .. كان هذا المركز هو المركز الأساسي لتطوير أبحاث القنبلة الذرية ، أما باقي المعامل في الولايات المتحدة وكندافكانت للقيام بالتجارب على الوقود النووي وعمليات الأنشطار وغيرها من الأبحاث الضرورية لإنتاج القنبلة الذرية .

وظلت المفاجآت المذهلة تتوالى على أيجور جوزينكو الذي ظل يراقب عمليات التجسس على معاقل صناعة القنبلة الذرية وهو في غاية الدهشة .. لقد بلغت العملية كاندي حداً مذهلاً من النجاح عقب تمكن العملاء السوفيت من معرفة التاريخ الذي تم تحديده للتجربة النووية الأولى ، ليس هذا فحسب ، بل الأخطر من ذلك أنهم حصلوا بالفعل على عينة من اليورانيوم ٢٣٥ المخصب ، وتم أرسال تلك العينة الثمينة إلى موسكو على متن طائرة خاصة حتى يتم تحليلها وأستخدامها في تطوير البرنامج النووي السوفيتي ، وتم أيضاً معرفة أدق التفاصيل العملية للتجربة النووية الأولى !!

كان كل هذا يفوق التصور والخيال ، وقرر أيجورجوزينكو عمل المستحيل من أجل الحصول على الوثائق السرية التي تؤيد أقواله أمام السلطات الكندية فهم بلا شك سوف يتعاملون معه بحذر بالغ ويظنون أنه عميل للمخابرات السوفيتية جاء للتجسس تحت ستار من الشهامة والبطولة .. ولكنهم عندما يعرفون كل هذه الأسرار ويتلقون ما تلقاه من مفاجآت سوف يصدقونه ويأمنون إليه .

ويبدو أن المخابرات السوفيتية بدأ يساورها الشك من ناحية جوزينكو وولائه تجاههم ، ولذلك فقد تم منح مكافآت سخية للجواسيس السوفيت في كندا عدا هو ..وأدرك أن الوقت قد حان للهروب قبل أن يتم ترحيله إلى الأتحاد السوفيتي وقتله سراً ليحمل معه ما عرفه من أسرار .

الهروب

تكاد قصة هروب جوزينكو تشبه ما يحدث في أفلام المغامرات الجاسوسية ، ولكنها تختلف عنها في أنها قصة حقيقية واقعية ..ظل يعمل بحذر شديد ويواصل العمل إلى ما بعد الغروب لتحديد الوثائق السرية التي سيحملها معه ، وقرر أن يهرب في الخامس من سبتمبر ، فواصل العمل حتى المساء وبسرعة كان قدحمل في جيوب معطفه تلك الوثائق التي حدد مواضعها من قبل وعلم أنها تحمل أخطر الأسرار .. أستطاع أن يسير بخطى ثابتة رغم أن قلبه يرتجف وهو يعبر البوابات الرهيبة للسفارة السوفيتية .. كان قدحدد وجهته من قبل فأتجه رأساً إلى أحدى الصحف الكندية الكبرى وهي صحيفة (أوتاوا جورنال) وكانت تحدوه فكرة جنونية وهي نشر هذه الوثائق السرية في الصحف لتطالعها الدول الغربية وتدرك مدى خطورة الأمر ، وظن أنهم سوف يتلقفون هذه الوثائق بلهفة شديدة .. ولكن حدث ما لم يتوقعه !!.

ألتقى جوزينكو بالمسئولين عن التحرير بالصحيفة وأطلعهم على ما يحمله من وثائق غاية في الخطورة ، ودهش عندما وجدهم لا يلقون إليه بالاً ولا يهتمون به الأهتمام الكافي مما جعل حماسه يفتر تجاههم .. أضطر لمغادرة مبنى الصحيفة متجهاً إلى منزله .

قضى ليلة مسهدة وهو يفكر في حقيقة موقفه الصعب .. توقع أنهم كانوا خلفه يراقبونه وأنهم لن يتركوه لحظة واحدة ، وفي نفس الوقت لم تكن لديه أدنى رغبة في العودة إلى السفارة أو إلى الأتحاد السوفيتي ، فمصيره الموت في كلتا الحالتين .. سواء علموا بخيانته أم لا .. لقد تحقق من ضرورة قتل كتاب الشفرة بالمخابرات السوفيتية كإجراء أمني !! لم يكن أمامه سوى محاولة إعادة الكرة مع الصحيفة ، فذهب إليها في الصباح التالي بصحبة زوجته وأبنه البالغ من العمر حوالي سنتين وهو يشعر بالخوف الشديد من أن تصيبه رصاصة مجهولة في رأسه فترديه قتيلاً .. فهو يعرف جيداً

أساليب المخابرات السوفيتية :

لم يجد أدنى تغيير في موقف المسئولين بالجريدة الذين نصحوه بإبلاغ البوليس .. أتجه إلى عدة مكاتب رسمية دون جدوى .. فقد ظل الجميع يتعاملون معه بحذر ولا يبدون الأهتمام الكافي تجاهه .. وكان رئيس وزراء كندا قد اسمع بأخباره فنصح المسئولين بإعادة جوزينكو إلى السفارة السوفيتية !! كان كل ما يخشاه هو أن تسوء العلاقات الودية بين بلاده بين الأتحاد السوفيتي إذا ما قبل منح هذا المنشق حق اللجوء السياسي .. وقد غضب الكثيرون من تصرف رئيس الوزراء الذي كان يجب عليه التعامل مع الموضوع بأسلوب مختلف تماماً .. وأن يقدر مدى الخطورة البالغة المترتبة على أي خطأ يرتكبه في ذلك الوقت لاسيما وأن الأمر يتعلق بمؤامرة ضخمة تضر بالعديد من الدول ومنها بلاده .

أدرك جوزينكو أنه كان واهماً حينما ظن أن المسئولين سيتلقفونه يوفرون له أقصى درجة من الحماية ، وأن عليه أن يواجه ما سيحدث عقب خروجه إلى الشارع ، فمن المؤكد أن رجال المخابرات السوفيتية لن يتركونه لحظة واحدة بعد كل ما فعله .. أنه يستحق كل هذا من جراء حمقه وغفلته .. كانت الساعة تشير إلى حوالي السابعة مساء حينما عاد جوزينكو بصحبة زوجته وطفله إلى المنزل .. أفاق من أوهامه على الحقيقة المروعة .. فهم بلا شك سوف يعلمون بما فعله ، وسوف يكتشفون أختفاء الوثائق الخطيرة ولن يتركونه على قيد الحياة .. أنتابه الفزع والرعب خاصة حينما لمح رجلان يقفان في الشارع ويراقبان شقته .. بعد قليل سمع طرقاً على الباب وصوتاً يناديه .. عرف صاحب الصوت .. أنه سائق الكولونيل زابوتين .. أذن فقد حانت نهايته .

كان جوزينكو هو وزوجته يرتجفان وهما يحبسان أنفاسهما حتى ييأس الطارق وينصرف من تلقاء نفسه ، ولكن الطفل الصغير لم يكن يدرك من الأمر شيئاً فأنطلق يركض وهو يرفع صوته فأعلن عن وجودهما بالشقة

وعدم رغبتهما في الظهور علناً !! وبسرعة قرر جوزينكو العمل قبل أن يعود الرجل وبصحبته الآخرين لأقتحام الشقة والقبض عليه وربما قتله هو وأسرته .. أسرع جوزينكو إلى الشرفة الخلفية ونادى جاره على عجل وكان ضابطاً في سلاح الطيران الكندي وراح يقص عليه قصته بسرعة وطلب منه الأهتمام بأبنه هذه الليلة فقد يقتله الروس هو وزوجته ، وفيما كان يهم بمغادرة شقته عن طريق الشرفة الخلفية لمح رجلاً من العملاء السوفيت يقترب من المنزل ، فهرع إلى جاره وطلب منه إخفاؤه هو وزوجته في شقته إلى أن يحضر رجال البوليس ، ولكن إحدى الجارات كانت قد سمعت الحوار وطلبت من جوزينكو وزوجته الإقامة لديها حتى يستدعي جارهما البوليس ، ووجد جوزينكو أن أقامتهم عند الجارة الطيبة ستكون أفضل ، فلن يتخيل السوفيت أنهم ما زالوا في المنزل !!

أستقل الجار الشهم دراجته وأنطلق بها لأستدعاء رجل البوليس ، وبعد قليل جاء رجلان ودخلا إلى الشقة التي يقيم بها جوزينكو وزوجته وسمعا منه القصة بتفاصيلها ، وأتفقا معه على أن يراقبا المنزل من الخارج وعليه أستدعائهما عند الخطر بإطفاء أنوار الحمام .. ظلا يراقبا المنزل عدة ساعات حتى أقتربت الساعة من منتصف الليل حيث وصلت سيارة بها أربعة رجال متجهمي الملامح يبدو لأول وهلة أنهم روس .. أخذوا يطرقون باب شقة حوزينكو بعنف ، فتح الجار الضابط باب شقته فسأله الروسي عن جوزينكو فأجاب انه لا يعلم ، فظلوا يطرقون الباب بعصبية وقوة قبل أن ينصرفوا .. ولكنهم عادوا بعد قليل ليعاودوا طرق الباب عدة طرقات فقط ثم أقتحموا الباب ودخلوا إلى الشقة !!

كان ما حدث دافعاً لرجال البوليس الكندي للتدخل .. فقد قام هؤلاء الرجال بإقتحام شقة مغلقة عنوة .. وجدوا أن المقتحمين قاموا بتفتيش الشقة بدقة .. وعندما دخل رجال البوليس وجدوا الروس ما زالوا يفتشون كل مكان في شقة جوزينكو ، سألهم رجال البوليس عما يفعلونه في الشقة

.. ولماذا قاموا بإغتصابها ؟ فقالوا أنهم من المسئولين بالسفارة السوفيتية وقدجاءوا للحصول على أوراق هامة ، وقد سمح لهم مستر جوزينكو صاحب الشقة بالدخول حيث أنه مسافر إلى تورنتو !!

فقال له ضابط البوليس الكندي : أليس شيئاً مثيراً للسخرية والعجب أن يسمح لكم بدخول شقته فتقومون بإقتحام القفل عنوة ؟! فأدعوا أنهم أضاعوا المفتاح ، ثم طلبوا من الضابط الخروج من الشقة فليس له حق دخولها ، ولكن الضباط الكنديين تمكنوا من إخراج الروس من الشقة وإغلاقها ..أدرك المسئولون في كندا مدى خطورة الأمر ، فحضور كبار المسئولين بالسفارة السوفيتية للبحث وتفتيش شقة جوزينكو يعتبر شيئاً غير عادي ، ولا شك أن الأمر خطير للغاية .. أما جوزينكو فقد ظل لمدة يومين تحت حماية البوليس هو وأسرته في شقة جارتهم الطيبة إلى أن يتم فحص ما لديه من وثائق ..في البداية أدعى البعض أن جوزينكو ما هو إلا جاسوس سوفيتي يقوم بهذه المسرحية لغرض في نفسه ، ولذلك تقرر فحص الوثائق لمعرفة مدى صحة ما ورد بها ، وشاءت الصدفة أن يكون الجاسوس البريطاني الخطير وليم ستيفنسون في كندا مسقط رأسه في ذلك الوقت ، وما كاد يلتقط بعض التفاصيل من البوليس الكندي حتى أدرك أن الأمر في غاية الأهمية والخطورة ، فقام بإجراء عدة أتصالات على مستوى عالٍ لتوضيح خطورة الأمر ، وبدأت قيادات الشرطة وكبار المسئولين يهتمون بأمر جوزينكو خاصة بعد أن ثبت صحة الوثائق السرية التي جاء بها جوزينكو .

الصيد الثمين

أنتقل أيجورجوزينكوإلى حماية الشرطة التي فرضت عليه رقابة مشددة ، أما في الجانب السوفيتي فقد جن جنون المسئولون بالسفارة عقب أكتشاف أختفاء الوثائق الخطيرة ، وتقدموا بطلب رسمي للمسئولين الكنديين لأستدعاة جوزينكو لمحاكمته بتهمة سرقة مبالغ مالية ضخمة من

السفارة ، وهذا ما يستلزم ترحيله إلى موسكو وتقديمه للمحاكمة .

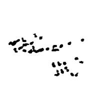
جرت أتصالات على أعلى مستوى بين المسئولين في الحكومة الكندية والمسئولين في الحكومتين الأمريكيين والبريطانية ، و تم أحظارهم بالوقوع على صيد ثمين للغاية .. وما أن علم الرئيس الأمريكي هاري ترومان أن كل أسرار القنبلة الذريع قد أنتقلت بالفعل إلى الأتحاد السوفيتي حتى أستولى عليه الحزن والأسى ، فقد كان يريد ألا يصل هذا السر أبداً إلى موسكو أو إلى أي دولة معادية كي تظل الولايات المتحدة وحلفاؤهم الأقوى والأقدر دائماً على الردع والأخذ بزمام المبادرة .. فمن المؤكد أن العلماء السوفيت يعكفون على صنع القنبلة الذرية ويبذلون جهوداً جبارة للحاق بالولايات المتحدة الأمريكية .

أما المخابرات البريطانية فقد تلقت أكثر من صدمة مروعة ، فبالأضافة إلى أختراق المخابرات السوفيتية للعملية كاندي وتسرب أسرار القنبلة الذرية إلى روسيا كانت هناك صدمة هائلة.. فقد كان العميل السري حليف السوفيت وصاحب الأسم الرمزي أليكس .. هو أحد كبار العلماء البريطانيين ، بل أنه أعظم عالم ذرة بريطاني .. ولم تكن صدمة هائلة لبريطانيا فقط ، بل كانت صدمة للعالم أجمع ومفاجأة مذهلة تتضاءل بجانبها باقي المفاجآت ، فقد كان هناك علماء غيره يعلمون لصالح الأتحاد السوفيتي .. حاولت المخابرات الأمريكية والمخابرات البريطانية التكتم على الفضيحة الكبرى ، ولكن كان من الصعب الأبقاء على كل هذه الأمور في طي الكتمان ، فهي تتعلق بعدة دول ، وبموضوعات سياسية وأمنية وأستراتيجية متشعبة .. لزمت الحكومة الكندية جانب التحفظ التام في بداية الأمر حتى تصاعدت حدة الأحداث بشدة ، وأظهرت التحقيقات أن هناك خمس وعشرون جاسوساً كندياً يعملون لصالح الأتحاد السوفيتي ويأتمرون بأمره ويساعدون المخابرات السوفيتية على تنفيذ كل مخططاتها في التجسس على الولايات المتحدة وبريطانيا وغيرها من الدول .. تم إلقاء

القبض على العملاء الكنديين ومواجهتم بالحقيقة فأضطروا للأعتراف بخيانتهم .. وربما كان إلقاء القبض على عدد من الجواسيس السوفيت هو أحد الفوائد الهامة التي عادت على الحكومات الغربية ، عقب الصدمات التى تلقوها بتسرب أخطر أسرارهم إلى عدوهم اللدود ..الأتحاد السوفيتي .

أدت وثائق جوزينكو الخطيرة إلى الكشف عن عدد كبير من الجواسيس في الولايات المتحدة وبريطانيا وغيرها من الدول الغربية ، وكان بعض هؤلاء الجواسيس بشغلون مناصب حيوية وخطيرة في دولهم ، وأدرك رئيس وزراء كندا مدى خطأه في البداية بالإعراض عن جوزينكو، وأتهامه بالهوس و الجنون والرغبة في إحداث فرقعة إعلامية بلا أساس .

أدرك المحققون مدى ضخامة شبكة التجسس الروسية في كندا ، فهي تضطلع بعدد كبير من المهام الخطيرة في منطقة شاسعة ، وتعمل كمركز تجميع للمعلومت وتوجيه العملاء إلى شتى الأنشطة ، في البداية كانت السلطات الكندية تشعر بالحرج إزاء الأمر خاصة وأن جوزينكو ينتمي إلى دولة صديقة لكندا هي الأتحاد السوفيتى ، الذي يرتبط بعلاقات ودية مع كندا ، ولكن ما أن ثبتت صحة أقواله حتى أدركت كندا أنها لم تكن بمنأى عن التجسس والأختراق الأمني ، فمن خلال الوثائق تبين أن وظيفة الملحق العسكري السوفيتي هي التجسس على كل ما يتعلق بالقنبلة الذرية ومعرفة المعالم و المصانع التي تساهم في العمل ، وكذا آلات صنع القنبلة ومكوناتها ، بالأضافة إلى التجسس على الأسرار الحربية لكندا من حيث عدد القوات وأمكانيات التسلح مما يعد عملاً عدوانياً تجاهها .



أما الوثائق السرية التي قدمها جوزينكو إلى السلطات الكندية فكانت تحتوى على معلومات خطيرة للغاية مثل الأسلحة الحديثة و الردارات والمتفجرات وتفاصيل عن إعداد اليورانيوم ٢٣٥ وكيفية التعامل معه للوصول إلى اليورانيوم المخصب لإنتاج القنبلة الذرية ، وتحركات القوات الأمريكية وقوات الحلفاء وكيفية تسليح سفن الأسطول الأمريكي

وغيرهـا مـن الأسـرار الخطيرة .

وكان السؤال الذي يلح على أذهان الجميع سواء في الأتحاد السوفيتي أم في المعسكر الغربي هو : لماذا أقدم ايجور جوزينكو على هذه الخيانة ، وماهى الدوافع التى دفعته إلى ذلك معرضاً نفسه لأقسى العقوبات ؟ وأجاب جوزينكو بما ذكرنا من قبل وهو أنه أدرك كذب كل الإدعاءات السوفيتية عن العدل والمساواة و العيش في رفاهية وسعادة .. لقد ثبت له أن كل هذا لم يكن إلا أكاذيب وأوهام لا يوجد لها أي أساس من الصحة ، وفي نفس الوقت رأى الحرية والديمقراطية الحقة في كندا التي أحبها بالفعل ولمس في أهلها وحكومتها الصدق وحب الخير ، ويكفي أن الحكومة الكندية قدمت الكثير من المعونات الأنسانية والطبية للأتحاد السوفيتي خلال الحرب الضارية التي شنها ضدها هتلر وجيوشه الجبارة التي كانت على مشارف موسكو ، كما كانت التبرعات المالية تنهال على بلاده من كندا ، فلا يجب أن يكون جزاء المعروف هو الخيانة !! أن تصرف حكومة الأتحاد السوفيتي يدل على النذالة والغدر وهو ما لا يرضاه جوزينكو .

وأكثر ما جعله يغضب على الحكومة السوفيتية هو أنها حكومة ذات وجهين .. وجه طيب يطالع العالم و يبشر بالسلام و ينبذ الحروب بين الأمم ويوالي عقد المؤتمرات الدولية التي تنشر مبادىء السلام والتعاون الدولي وتنبذ الحرب ، ووجه شرير..خفي.. كالح .. يسعى للتجسس وسرقة الأسرار الذرية وأسرار الترسانات الحربية أستعداداً للحرب وسعياً وراء أمتلاك القوى الرادعة التي تمكنه من بسط سلطانه على أنحاء العالم لينشر الخوف والرعب ويحكم الشعوب بالحديد والنار كما يحكم الشعب السوفيتي ، والشعوب في دول أوربا الشرقية ، وأعرب جوزينكو عن أسفه لكل ما يفعله الأتحاد السوفيتي ، وأنه بإفشاء هذه الأسرار الخطيرة يساهم في إقرار السلام بين الشعوب !!

وكانت القنبلة المدوية التي فجرها جوزينكو وهزت العالم هي الإشارة إلى

الجاسوس الأول والمعروف بالأسم الرمزي " اليكس ".

العميل السري أليكس

بناء على الوثائق السرية الخطيرة التي حملها جوزينكو معه ، والتي تم دراستها بعناية من قبل المخابرات الغربية خاصة المخابرات الأمريكية ، تم إلقاء القبض على عدد كبير من أخطر الجواسيس السوفيت في عدد كبير من الدول الغربية ، وقد كان جوزينكو بارعاً في أنتقاء أهم الرسائل والبرقيات والوثائق .. ومن خلال البرقية الشفرية التالية تم معرفة أخطر الحقائق .. أنتقال سر القنبلة الذرية إلى الأتحاد السوفيتي ، وحصول عملاء المخابرات السوفيتية على كمية من اليورانيوم المخصب.. والأخطر من كل ذلك أن الذي نقل كل هذه الأسرار هو أحد العلماء الكبار في البرنامج النووي الأمريكي البريطاني المشترك والمعروف بأسم العملية كاندي .

كانت البرقية الخطيرة رقم ٢٤١ وهي مرسلة إلى موسكو وهذا نصها :

(من اليكس : بلغ أنتاج اليورانيوم ٢٣٥ أربعمائة جرام يومياً في مصنع الفصل المغناطيسي في كلينتون .. ومن المحتمل أن يصل أنتاج الـ ٤٩ إلى ضعف الكمية السابقة .. ويتم إعداد بعض وحدات الجرافيت لأنتاج ٢٥٠ جراماً يومياً .. قام اليكس بتسليم ١٦٢ ميكرو جرام من يورانيوم ٢٣٣ - مع بلاتين إلينا) والتوقيع جرانت .

وفزع الجميع لدى مطالعة هذه البرقية وتساءلوا عمن يكون اليكس هنا ؟

وتسابق الجميع من أجل الأنتهاء من مطالعة البرقيات والوثائق السرية والقيام بعملية ربط المعلومات وتعقب الأشخاص الذين غادروا الولايات المتحدة أو كندا في التواريخ المدونة ، وكانت التقارير قد تحدثت عن رحلات لأليكس إلى لندن ومقابلة مسئولي المخابرات السوفيتية هناك .. وأخيراً تم التوصل إلى الأسم الحقيقي للخائن .. أنه العالم البريطاني آلان نون ماي ... وكانت صدمة مروعة خاصة للمسئولين في بريطانيا .. فلم يكن أحد

يتصور لحظة واحدة أ، يخدر العالم المرموق إلى درك الخيانة وبيع أخطر الأسرار إلى أعداء بلاده .

- ولكن من هو آلان نون ماي ؟

ولد آلان نون ماي في مايو من عام ١٨٩٢ بالقرب من برمنجهام) بأنجلترا ، كان له شقيقة وثلاثة أشقاء ، والحالة المادية للأسرة كانت طيبة فعمل والده هو البحث عن المعادن ، منذ طفولته المبكرة أظهر آلان نون ماي نبوغاً وذكاءً وفطنة عظيمة ، كما عرف بالإصرار والصبر والإجتهاد ولذلك تفوق على كل أقرانه وحقق تفوقاً كبيراً خاصة في مجالات العلوم والرياضيات ، والعجيب أنه كان بارعاً في الأدب يتميز بأسلوبه الراقي في الكتابة .. ألتحق بجامعة كمبردج وتفوق في الرياضيات وفي العلوم الرياضية وحصل على عدة جوائز للتفوق والتقديرحصل على درجة الدكتوراة في عام ١٩٣٦ ، وهو العام الذي قام فيه بزيارة للأتحاد السوفيتي !!

وكان ماي قد أنضم للحركة اليسارية في بريطانيا عام ١٩٣٠ وعمل بصحبة كبار اليساريين الذين تحدثنا عنهم في مواضع سابقة من هذا الكتاب وهم جاي بيرجس ودونالد ماكلين ، ومما يذكر عن ماي أنه لم يحاول أبداً الأستخفاء والأدعاء بكراهيته للشيوعية أو للمبادىء الأشتراكية ، بل أنه في كل لحظة كان يعلن عن هذه الأتجاهات لديه ، ويعلن أيضاً عدائه للفاشية والرأسمالية . ومما جعل ماي يصبح متطرفاً في أفكاره منجذباً إلى الفكر الشيوعي أكثر من سواه ، أنه عانى بقسوة تحت وطأة الكساد والفقر ، وكانت المنطقة التي يعيش فيها بأنجلترا من أكثر المناطق تضرراً من الأزمة الأقتصادية العالمية التي عصفت بالعالم في بداية الثلاثينات من القرن العشرين ، رأى حوله آلاف العمال العاطلين ، وتألم بشدة من مظاهر الفقر المدقع في بيوتهم وحرمانهم الشديد من مقومات الحياة الأنسانية في الوقت الذي يعاني فيه رجال المال والأعمال من التخمة ويرفلون في النعيم وتتضخم ثرواتهم يوماً بعد يوم ، وشهد بعينيه محاولات أنتحار الكثيرين من

العمال المتعطلين بعد يأسهم من أنفراج الأزمة .. وهكذا تولدت في نفسه عقدة شديدة من النظام الرأسمالي (و وهب قلبه) للشيوعية !!

ولعل هذا يفسر لنا كيف يصبح هذا الرجل العبقري الموهوب الذي يشار إليه بالبنان .. جاسوساً ينقل لأعداء بلاده أخطر الأسرار ويقلب موازين القوى الدولية تماماً ،وبعكس ريتشارد سورج لم يحارب ماي في صفوف الشوعيين أو يشترك في المظاهرات و المشاجرات الدامية مع ميلشيات الأحزاب المعادية ، بل أنه عمل بهدوء في صفوف الشيوعيين الأنجليز عقب عودته من الأتحاد السوفيتي عام ١٩٣٦، وأصبح عضواً في تحرير إحدى الصحف الهامة والناطقة بلسان اليساريين ، كما كان عضواً عاملاً نشطاً في الحركة العمالية اليسارية بأنجلترا لم يتوقف آلان نون ماي عن البحث والتفوق في مجاله العلمي رغم ميوله الأدبية والفلسفية وأتجاهاته اليسارية والثورية ، شغل وظيفة مدرس في الجامعة الملكية بلندن عقب مغادرته لكمبردج ، كما وضع أسمه ضمن جنود الأحتياط بعد أن نشبت الحرب العالمية الثانية ، وتواصلت أبحاثه وأنجازاته وحقق نجاحات متلاحقة جعلته من أعظم علماء أنجلترا رغم أن سنه لم يتجاوز الثلاثين ، وظل يواصل الأبحاث في مجال العلوم الطبيعية بلا كلل أو ملل ، وقد أنضم للعمل مع الفريق المعاون للعالم الشهير شارلز ايليس ، ولحظ الرجل براعة ماي و نبوغه في مجال العلوم الطبيعية بما يفوق باقي زملائه .. وقد آلان نون ماي أشد الحزن عندما أحتجت الجيوش النازية الأتحاد السوفيتي وقتلت عشرات الآلاف وأحدثت بالبلاد دماراً رهيباً ، فهو برغم تفوقه العلمي وشهرته الكبيرة إلا أنه لم يحاول أبداً إخفاء ميوله الشيوعية .

أنضم ماي لمعمل الأبحاث السرية في كمبردج ، ووقه على العقد السري الرسمي الذي يلزمه بالتكتم علي أسرار عمله وعدم البوح بها إلى أي شخص ، وخلال التحقيقات لم يستطيع أحد أثبات أنه كان على علاقة بالمخابرات السوفيتية في تلك الفترة ، ولكن الكثير من الدلائل تشير إلى

وجود علاقة قوية بينه وبين المخابرات السوفيتية ، وأنه نجح إلى حد رائع في أخفاء تلك العلاقة عن الجميع حتى أقرب الناس إليه ، وفي نفس الوقت لم يكن أحد على الأطلاق يشتبه فيه في ذلك الوقت والحرب مستمرة بين بلاده وبين ألمانيا النازية .. فمن خلال فحص البرقيات السرية التي أحضرها ايجوز يجوزينكو وجدت عبارة (أطيب التحيات من مايكل) وهي كلمة السر في التعامل بين آلان نون ماي ومدير المخابرات السوفيتية ، ويدل هذا على أنه كان يعرف الكلمة منذ وقت طويل ، ومن ذلك تم الأستدلال على أنه أنضم للمخابرات السوفيتية خلال رحلته إلى الأتحاد السوفيتي في عام ١٩٣٦ .

وهكذا أستطاعت المخابرات السوفيتية أن تضع يدها على أحد العلماء النوابغ في مجال الذرة ، وكان هو - وليس المخابرات السوفيتية الذي سعى إلى خدمة الشيوعية بأعتبارها طوق الأنقاذ للبشرية من الفقر و الأستغلال والظلم الأجتماعي .. وهو نفس الفخ الذي سقط فيه قبله الكثيرين .. كما كانت الصدفة هي التي قادت الأتحاد السوفيتي للوصول إلى أخطر سر في العالم في ذلك الوقت وهو سر القنبلة الذرية ، فلولا نباهة وتفوق وبراعة آلان نون ماي ما كان وقع عليه الأختيار للأنضمام إلى فريق العمل السري في المعامل البريطانية للقيام بتصنيع القنبلة الذرية .

المعامل السرية في كندا

واصل الدكتور آلان نون ماي تفوقه ونبوغه ، وأصبح بمرور الأيام هو أهم العلماء البريطانيين في مجال الأبحاث الذرية كما عرف عنه شدة حبه للعمل وإخلاصه وتفانيه في عمله ، حيث يقضي في العمل ساعات متواصلة دون راحة ويقضي الليل في معمله لا يهمه إلا الوصول إلى النتيجة المنشودة ، ولذلك نظر إليه كبار المسئولين من هذه الزاوية وأغفلوا ميوله اليسارية والتي كانت كفيلة بإقصائه عن هذا الموقع البالغ السرية والحساسية ، يضاف إلى ذلك أن اوار الحرب العالمية الثانية قد أشتد وتوارت إلى حد كبير النزعات

الحزبية والنعرات السياسية ، وحلت محلها الأعتبارات القومية والحس الوطني ، كما أن الدكتور ماي ظل بعيداً عن أي أنشطة حزبية أو أجتماعات سياسية .

لكل ما سبق تقرر أن يرأس الدكتور آلان نون ماي فريق العلماء الذين سيتم إيفادهم إلى أقصى الشمال الغربي .. إلى كندا ليواصلوا الأبحاث في سرية وبعيداً عن أعين الرقباء !! وقد ذكرنا أن المخابرات السوفيتية سبقتهم إلى هناك وأقامت قاعدة كبيرة للتجسس ، ولعل عميلهم المخلص آلان نون ماي قد أخبرهم بالأمر قبل الشروع فيه والرحيل إلى كندا !! لقد كان تجنيد المخابرات السوفيتية للدكتور آلان تون ماي أنتصاراً عظيماً على القوى الغربية عامة ، فكما نرى .. لقد أصبح كل شى عمكشوفاً أمام السوفيت بما في ذلك أخطر أسرار الأسلحة النووية ، ومن حسن الحظ أن العمل في كندا ربط بين جهود العلماء الأمريكيين والبريطانيين من أجل تحقيق أفضل وأسرع أنجاز لأنتاج القنبلة الذرية .. ويعني مشاركة الولايات المتحدة الأمريكية توفير الأموال الطائلة واللازمة للأبحاث وكذلك مشاركة العديد من كبار العلماء ذوي الخبرة والعلم مع رفاقهم البريطانيين ، بالأضافة إلى ميزة هامة للغاية وهي إجراء التجارب الذرية بعيداً عن أعين المخابرات المعادية و وجود وفرة من المناطق الصالحة لإجراء تلك التجارب ، والإبتعاد عن خطر تعرض المعامل ومراكز البحث للقصف الجوي الذي تتعرض له مناطق كثيرة من أنجلترا .

وهكذا رحل الدكتور آلان نون ماي إلى كندا في يناير من عام ١٩٤٣ ، كان الموقف ما يزال إلى سيئاً للغاية بالنسبة للحلفاء على مختلف الجبهات والحرب تبدو بلا نهاية وشيكة ، وإمعاناً في التخفي والحذر رحل العلماء البريطانيين ومعهم الدكتور ماي على متن سفينة تجارية مخصصة لنقل شحنات الموز !! وظل الرجل هادئاً كعادته كثير التفكير قليل الكلام ، وإن لم يكن عازفاً عن الأختلاط بالآخرين أو المشاركة إلى حد ما في الأنشطة

المختلفة.. أي أنه كان يتصرف بطريقة عادية لا غبار عليها ، كان هذا سلوكه أيضاً في كندا حيث كان يقضي أوقاتاً طويلة مرهقة في عمله بالمعامل السرية ويقضي وقت راحته في منتدى الموظفين ، كما كان الوحيد بين فريق العلماء الذي يتلقى دعوات للعشاء أو الجفلات نظراً لعزلته وميلة للوحدة والهدوء ، وفي هذه المرحلة لم يكن يتحدث إلى أحد أو يصارحه بحقيقة ميوله الشيوعية ، وأن كان يتابع بشغف أنباء القتال على الجبهات المختلفة خاصة الجبهة الروسية ، ويتألم بشدة للضربات الساحقة التي يتعرض لها السوفيت ، وعشرات الآلاف من القتلى والجرحى الذين يتساقطون منهم كل يوم ، ويلوم نفسه على حياته الرغدة الحافلة بألوان الرفاهية والدفء والملذات والطعام الشهى بينما لايجد السوفيت الخبر الجاف !!

والعجيب في الأمرأن ايجور جوزينكو حدث له رد فعل عكسى ، فقد شعر بالنقمة على وطنه .. الأتحاد السوفيتي .. وكره الحياة فيه عندما قارنها بحياة كندا المرفهة الحافلة بالمتع وألوان الراحة .. لقد تعاطف البريطاني مع الأتحاد السوفيتي فخان بلده وباع أسرارها لعدوها ـ بينما كره جوزينكو وطنه فخانه وأنضم لأعدائه !! تنقل ماي بين عدة شقق أقام فيها مع بعض الزملاء قبل أن يستقر في شقة بمفرده بمونتريال حيث الحياة مختلفة تماماً عن الحياة في أنجلترا التي تتعرض للضربات الجوية النازية في كل وقت وتنقطع فيها الكهرباء فتعيش في ظلام دامس ويعاني أهلها البرد القارس نتيجة لأنقطاع التيار الكهربائي .. وتحسنت الأحوال المادية للدكتور ماي إلى حد كبير ، فتضاعف دخله وتوافرت لديه الأموال .

كان تخصص آلان ماي هو العلوم الطبيعية التجريبية وكل ما يتصل بأبحاث الذرة بصفة عامة ، ولكنه أولى أهتماماً كبيراً بالوصول إلى أنتاج القنبلة الذرية وتوافرت لديه معلومات هامة عنها ، ولكن الشق الأهم كان لدى المعامل والعلماء الأمريكيين في شيكاغو ، وكان التعاون قائماً بين فريق

العلماء البريطانيين والكنديين من ناحية وبين العلماء الأمريكيين من ناحية أخرى .. ولكن إلى حدود .. فالأمريكيين يريدون الحصول على ما يريدون وما لا يعرفون من الفريق الآخر دون أن يسمحوا لهم بمعرفة الكثير ، وبحكم مركز الدكتور ماي ومكانته سمح له الأمريكان بالدخول إلى معاملهم السرية في شيكاغو حيث زارها أربع مرات ، ولكن القائد العسكري للمنطقة الجنرال جروفز أبى السماح له بزيارة المعامل للمرة الخامسة حتى لا يعرف آخر التطورات في صناعة القنبلة الذرية وهو ما حاولت الولايات المتحدة أخفاءه عن العالم .

لم يكن الجنرال جروفز أو غيره من المسئولين ورجال المخابرات الغربية يرتابون لحظة واحدة في آلان نون ماي ، فتقارير المخابرات البريطانية تؤكد ولائه المطلق وإخلاصه لبريطانيا ، وهي تقارير محل ثقة الجميع ، وكان يعتقد في ذلك الوقت أن ماي يعرف فكرة عامة فقط عن صناعة القنبلة الذرية ، ومن المعروف أن أجهزة المخابرات تقوم بإعداد التقارير الأمنية عن كل العاملين بالمنشآت النووية و المعامل السرية والأماكن الحساسة حتى لا يحدث أختراق أو تسرب للمعلومات لأي سبب من الأسباب .. ولكن الدكتور آلان ماي أثبت للجميع أنه أكثر منهم ذكاء وأقدر منهم على الخداع والتظاهر بالبساطة والجهل !!

جرت في تلك الأثناء عدة تجارب هامة للغاية على الأنشطار النووية والتفجيرات الذرية المحدودة ، وهي عمليات ضرورية قبل الشروع في أنتاج القنبلة الذرية ، جرت هذه التجارب في معامل كندية أخرى غير التي يشرف عليها الدكتور ماي مثل المعامل عند مصب نهر تشوك ، وكذلك أجريت تجارب هامة للغاية في المعامل الأمريكية ، وكان يعتقد أن الدكتور ماي .. مثل غيره من أعضاء فريقه العلمي لا يعلمون إلا أقل القليل عن هذه التجارب ولا يعرفون أدنى تفاصيل عنها ، ولا يمكنهم الحصول على هذه التفاصيل من العلماء الآخرين ، فهم محل ثقة ويتمتعون بالنزاهة التامة .

أن تفاصيل هذه العملية الكبرى تحفل بالإثارة البالغة ، وتحتوي على عدة مفاجآت لم يكن أحد يتوقعها وخلال التحقيقات التي أجريت عقب سقوط الشبكة الرهيبة بدأت الحقائق المفزعة في التكشف وأدرك القائمون على أجهزة الأمن والمخابرات مدى الأخطاء الساذجة التي ترددوا فيها وجعلتهم يدفعون ثمناً باهظاً لا يمكن تعويضه .. فقد كان الدكتور ماي أكثر ذكاء من فريق المخابرات الأمريكية والكندى والبريطاني وتصرف ببساطة وتلقائيه .. بل وبسذاجة أيضاً كما يرى البعض ، ولم يدس أنفه في تفاصيل التجارب الخطيرة والأبحاث السرية بطريقة مباشرة ، بل كان يجعل من أمامه يذكرها .. أو يذكر بعضها ، ويقوم هو بعملية الربط والترتيب بعقله الخارق فتكتمل لديه الصورة ويرسلها إلى وطنه الثاني .. الذي يدين له بالحب والولاء .. الأتحاد السوفيتي .

كلمة السر

وصلت معلومات سرية كثيرة عن الأبحاث الذرية وتصنيع القنبلة إلى الأتحاد السوفيتي ، ولكن عقب إجراء تجربة التفجير النووي في صحراء الموجوردو جن جنون السوفيت وأصدروا تعليمات صارمة إلى عملائهم في المنطقة بتكثيف الجهود والحصول على السر الأعظم .. سر القنبلة النووية بأي صورة وبأي ثمن ، وأعلنت حالة الطوارىء القصوى في شبكة المخابرات السرية بكندا ، ولم يتوافر لدى المخابرات الغربية أية معلومات أو وثائق تدل على أتصال الدكتور آلان نون ماي بالمخابرات السوفيتية قبل عام ١٩٤٥ ، وهو التاريخ الثابت في وثائق جوزينكو كما ذكرنا ، ولكن يستدل من سياق البرقية أنه كانت هناك صلة وثيقة بين الطرفين قبل ذلك بفترة ليست بالقصيرة .. صدرت تعليمات عاجلة للملحق العسكري السوفيتي بكندا الجنرال زابوتين بالتحرك ، فأتصل من خلال معاونيه بزعيم شبكة التجسس السوفيتية في كندا ، وهو عضو بالبرلمان الكندي يدعى فردروز ، ومعروف

بميوله الشيوعية القوية .. كان الوسيط الذي أرسله زابوتين لمقابلة فردروز يدعى الملازم أنجيلوف وأسمه المستعار باكستر ، وهو أيضاً الذي ذهب لمقابلة الدكتور ماي وذكر له كلمة السر (أطيب التحيات من مايك). وبدأت العملية الكبرى ونشط كل من الفريقين .. فريق الباحثين و العلماء لأنتاج القنبلة الذرية في أسرع وقت ممكن .. وفريق الجواسيس والعملاء السوفيت لسرقة تصميمات تلك القنبلة .

من خلال لقائه القصير مع العميل السري باكستر تلقى آلان نون ماي تعليمات المخابرات السوفيتية بالحصول على المعلومات المتعلقة بتخصيب اليورانيوم والوصول لأنتاج الطاقة الذرية ، وتواصلت اللقاءات العابرة بين الرجلين وكان ماي يسلم أنجيلوف أو باكستر أخطر الوثائق في تقارير مكتوبة بخط يده ، وأجتهد في الحصول على أدق التقارير والأسرار الخاصة بالتصنيع الذري وتخصيب اليورانيوم ، وقدم للمخابرات السوفيتية أكثر مما كانت تطلبه أو تتوقعه مما يدل على مدى إخلاصه في خدمتها دون مقابل يذكر.. فمن الطرائف أن ماي حصل من باكستر على مبلغ من المال نظير إخلاصه للسوفيت .. كان هذا المبلغ ٢٠٠ دولار فقط !! بالإضافة إلى زجاجة ويسكي !!

كانت التقارير السرية ، ترسل بالشفرة ، أما تلك المكتوبة بخط يد ماي فترسل عن طريق الحقيقة الدبلوماسية من خلال الدبلوماسيين السوفيت ... وفي شهر يولية من عام ١٩٤٥ أبلغ أليكس الروس بأنه قد يعود إلى أنجلترا عقب أنتهاء الأبحاث في كندا فرد الروس على زابوتين بأسمه المستعار جرانت : (إلى جرانت .. بالإشارة إلى رقم ٢١٨ حاول بكل جهدك الحصول من ألكس على آخر وأدق التفاصيل في تخصيب اليورانيوم قبل عودته ، عليك بحث أمر عودته إلى بلاده .. هل من الأفضل لنا بقاءه ؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل يمكنه البقاء أم أن الأفضل عودته إلى لندن) .

وفي أغسطس كان ماي ما يزال في كندا عندما حقق للروس أنتصاراً

عظيماً فقد نجح في سرقة نماذج مصغرة من النظائر المشعة المخصبة ، وكانت تلك إحدى إنجازاته الكبرى خلال عمله كجاسوس سوفيتي ، وفي تلك الأثناء كانت الولايات المتحدة قد ألقت بالقنبلة الذرية الأولى فوق هيروشيما ، فجرى نقاش عملي بين العديد من العلماء وبينهم ماي الذي أستطاع الحصول على أخطر المعلومات المتعلقة بالقنبلة الذرية ، وذود الروس بتلك المعلومات الحيوية على الفور ، أما النماذج التي حصل عليها فقد حملها أحد الدبلوماسيين متوجهاً بالطائرة إلى الأتحاد السوفيتي نظراً لأهميتها البالغة

وثم أرسال برقية سرية من السفارة السوفيتية في كندا إلى مدير المخابرات في الأتحاد السوفيتي كما يلي : (إلى السيد المدير .. قام أليكس بتذويدنا بالحقائق التالي :

١ ـ تم أجراء التجارب الخاصة بتفجير القنبلة النووية في نيو مكسيكو . وقد صنعت القنبلة التي ألقيت على اليابان من اليورانيوم ٢٣٥ .

٢ ـ قام أليكس بتسليمنا بلاتين به ١٦٢ مليجرام من اليورانيوم ٢٣٣ في هيئة أكسيد .. جرانت)

ولم تتوقف جهود ماي أو ألكس على الموضوع الخطير وهو أنتاج وتصنيع القنبلة الذرية ، بل تعدت ذلك إلى معلومات ذات أهمية كبرى للسوفيت ونستدل على ذلك من البرقية التالية التي أرسلها زابويتن إلى موسكو ويقول فيها : (بناء على تكليف منا قام أليكس بتقديم تقرير عن تلك القنابل الألكترونية التي يستعملها الأمريكيين خاصة في سلاح البحرية ضد الطيارين الأنتحاريين اليابانيين . تبين أن يوجد بداخل القنبلة جهاز راديو وبه أنبوبة ألكترونية واحدة تعمل ببطارية جافة . وجسم القنبلة نفسه هو الموصل للأمواج الكهرومغناطيسية ويحدث أنفجار القنبلة بالقرب من الطائرة المعادية بسبب تفاعل الأمواج المرتدة من الطائرة على جهاز الراديو .. ورغم أن الأمريكيين توصلوا إلى هذه الأنجازات إلا أنهم أخفقوها عن الانجليز .. ومن التطويرات الحديثة أستخدام غطاء من البلاستيك للبطارية لوقايتها من

قوة الضغط الناتجة عن حركة القنبلة .

جرانت في ٩ / ٧ / ١٩٤٥) .

إلى هذه الدرجة وصل إخلاص الدكتور آلان نون ماي في خدمة الأتحاد السوفيتي ، ولاشك أن أخلاصه هذا لم يكن خافياً عن أعين حلفائه السوفيت الذين سألوه يوماً عن إمكانية تجنيد عالم بريطاني يدعى الدكتور فيل فأجابهم بألا يحاولوا ذلك وعليهم الأبتعاد عن طريق هذا الرجل ، فقد كان قيل من شباب الشيوعيين في لندن كما كان من العلماء النابهين المشهود لهم بالكفاءة ، ولكنه لا يستطيع التحكم في نفسه ويجاهر بآرائه في أي مكان بصراحة ، فقد سمعه ماي يتحدث في السياسة أكثر من مرة في مونتريال مما يخل بمبادىء الحرص والحذر الواجب على أصغر جاسوس الحفاظ عليها حتى لا ينكشف أمره ، وهي تعليمات من قبل المخابرات الروسية الحريصة على عدم وجود أي صلة لعملائها بالأحزاب الشيوعية . ومن حسن حظ فيل أن ورد أسمه في البرقيات المرسلة للمخابرات السوفيتية ولذلك تمت تبرئته خلال التحقيقات الموسعة التي أجريت عقب أكتشاف خيانة ماي ، فلم يثبت عليه أنه قدم للروس أية معلومات أو خدمات رغم ميوله الشيوعية المعروفة .

وقد عادن أليكس أو ماي جرانت وباقي أعضاء الشبكة في الحصول على أهم المعلومات من مركز البحث السري الواقع عند مصب نهر تشوك بكندا وهي أبحاث تنصب في الغالب على تخصيب اليورانيوم ، ورغم ذلك أرسل جرانت يسأل الإدارة بموسكو عن مدى تقديرهم لما ذودهم به أليكس من معلومات حتى يتم توجيه العملاء بناء على هذا التقرير الوارد من الإدارة ... ورأي ماي أن الغرض من وجوده في كندا قد أستنفذ بعد أن كاد العمل ينتهي ، كما أن الحرب العالمية الثانية أنتهت بالفعل عقب هزيمة ألمانيا النازية وأستلام اليابان ولم يعد هناك خطر تدمير المعامل ومراكز الأبحاث في لندن ، وأخطر جرانت بعزمه العودة إلى لندن وأنه أبقى على علاقات

صداقة وتعاون وطيد مع العلماء في كندا للأتصال بهم والحصول على أية معلومات يحتاج إليها مستقبلاً ، وقد وردت برقية من موسكو إلى جرانت هذا نصها :(عليك بإعداد كافة الترتيبات الضرورية وإبلاغها إلى المسئول في لندن حتى يقوم بالتعامل مع أليكس هناك .. لا تنس أن تذوده بكلمة السر)
المدير

عودة إلى لندن

وهكذا كان قرار عودة آلان نون ماي أو أليكس إلى لندن مرتبطاً بمصالح الأتحاد السوفيتي ومتطلباته خلال المرحلة التالية .. وقبل أن يعود إلى لندن كانت قد سبقته إجراءات عملية لتسهيل أتصاله بمسئول المخابرات السوفيتية هناك .. وهذه برقية أرسلها جرانت أو زابوتين إلى رئيسه يقول فيها :

(السيد المدير .. لقد أنتهينا بالفعل من إعداد الوسائل الكفيلة بالأتصال باليكس في لندن ، وقد علمنا أنه سيعمل مدرساً في كلية الملك بشارع ستراند ومن السهل العثور عليه من خلال دليل التليفون ، حيث سيتم اللقاء مع المسئول هناك في أحد أيام ٧ أو ١٧ أو ٢٧ أكتوبر وذلك في الشارع الواقع أمام المتحف البريطاني في الحادية عشر مساء ، وستكون العلاقة المميزة للتعارف بينهما صحيفة مطوية وموضوعة تحت الزراع الأيسر .. وكلمة السر هي أطيب التحيات إلى مايكل .. لقد أخبرنا أنه لابد من عودته إلى لندن ولم يعد بإمكانه البقاء في كندا ، وقبل عودته سيذهب لزيارة مصانع اليورانيوم وسيبقى بها حوالي أسبوعين ، وسيحاول أن يقابلنا قبل رحيله إذا كان ذلك في أستطاعته .. سيكون في لندن في الأول من سبتمبر .. وعلمنا أنه سيحضر إلى كندا العام المقبل ليبقى حوالي شهر .. قمنا بإعطائه مبلغ ٥٠٠ دولار - جرانت)

ورأى المسئول بموسكو إجراء بعض التعديلات الهامة تم أرسال برقية

إلى جرانت يقول فيها :

(وجدنا أن الترتيبات المذكورة في البرقية ٢٤٤ غير جيدة وإليك الترتيبات الضرورية :

١ ـ يتم اللقاء أمام المتحف البريطاني ولكن في شارع رسل إلى جانب توتنهام كورث بالجهة المقابلة ـ وسيأتي رجلنا من الناحية الأخرى ..

٢ ـ الساعة : الأفضل أن يتم اللقاء في الساعة ٢٠ لأن الظلام سيكون حالكاً في الساعة ٢٣ .. أرجو أن يتم تحديد وقت اللقاء بدقة مع أليكس ثم أخطرني على الفور ، وإذا لم تتم المقابلة في أكتوبر فلتتم في نوفمبر بنفس الأيام والمواعيد السابقة ..

٣ ـ أما كلمة السر فسيقول رجلنا : أريد أقصر طريق إلى ستراند ، فيقول أليكس : حسناً .. أنني ذاهب إلى هناك فهيا بنا ، ويقول بعد قليل : أطيب التحيات من مايكل .

٤ ـ وتكون علامة التعارف بينهما هي وضع أليكس صحيفة التايمز تحت ذراعه الأيسر ، بينما يضع رجلنا في يده اليمنى مجلة بكتشر بوست ..

أرجو الأتصال بي حالما تصلك هذه الشروط / المدير ٢٢ / ٨ / ١٩٤٥).

في تلك أثناء وعلى الجانب الآخر كانت الأمور قد بلغت حداً كبيراً من التوتر والغضب عقب أعترافات جوزينكو وأكتشاف تسرب أخطر الأسرار إلى (العدو) .. وجرت أتصالات على أعلى مستوى بين رئيس الوزراء الكندي الذي أستقل طائرته متجهاً إلى الولايات المتحدة ومقابلة الرئيس الأمريكي هاري ترومان ، عقب ذلك أتجه إلى بريطانيا وألتقى برئيس الوزراء البريطاني مستراتلي ، وكان موضوع اللقاء هو مكافحة التجسس السوفيتي فى كندا وأمريكا وأنجلترا ـ ثم الموضوع الخطير وهو تحديد شخصية العميل السري أليكس وإلقاء القبض عليه متلبساً ، عقد أجتماع بين رئيس الوزارة في كل من كندا وبريطانيا وحضر الأجتماع مدير البوليس الأنجليزي سكتلنديارد وتم تكليف الكولونيل لينارد برت بمهمة الكشف عن

العميل السوفيتي المدعو أليكس وكان بيرت من أكفأ رجال المباحث البريطانيين فقام بدراسة البرقيات والوثائق التي تم الحصول عليها من جوزينكو ، لم يكن القبض على العميل السري أليكس بعد تحديد شخصيته هو الهدف الأساس للمباحث البريطانية ، بل أن الأهم من ذلك هو معرفة كافة المعلومات عن أفراد الشبكة وطرق نقل المعلومات وحجم العمل والطرق السرية التي يسلكونها للوصول إلى المعلومات والوثائق الخطيرة ، فالقبض على أليكس لن يحل إلا حزء يسير من القضية ، بينما المطلوب هو الوصول إلى أكبر عدد ممكن من الجواسيس ، ومن المؤكد أن جهاز مخابرات رفيع المستوى كالمخابرات السوفيتية لن تسمح لعميل من عملائها بمعرفة باقي أعضاء الشبكة ، ولكن بالمراقبة والتعقب يمكن الوصول لأكبر عدد منهم ، وهو ما لا يستطيعه أليكس ..

ومما يذكر هنا قول رئيس مكتب مكافحة الجاسوسية في أمريكا أدجارهوفر :

(أن الهدف النهائي في قضايا الجنايات هو معرفة المجرم والقبض عليه ، أما في قضايا الجاسوسية بمعرفة المجرم ليس سوى الخطوة الأولى لأن الأهم من ذلك بكثير أن تتأكد من أتصالاته وعلاقاته وأغراضه ومصادر معلوماته ووسائل مواصلاته أي أيصال معلوماته وأستقبال أوامره . ولهذا فإن القبض على المجرم وإذاعة القضية هي خطوات تتخذ في النهاية ، بل هي الملجأ الأخير . وخير لنا أن نعرف هؤلاء الناس وأن نعرف ما يفعلونه وأن نحبط مجهوداتهم ـ بدلاً من أماطة اللثام عنهم ثم بذل بذل الجهد المضني في سبيل التعرف على حلفائهم)

ولذلك قرر الكولونيل ليناردبيرت تعقب أليكس بحذر شديد ، والأنتظار حتى يتم اللقاء المنتظر أمام المتحف البريطاني في أيام ٧ أو ١٧ أو ٢٧ أكتوبر أو نوفمبر ، حسبما ورد في البرقيات التي قدمها جوزينكو إلى السلطات في كندا ، ولكن كانت هناك ظلال من الشك تحوم حول هذا

اللقاء ، وتوقع رجال المخابرات ألا يقدم أليكس على أي خطوة يمكن أن تكشفه بعد خيانة جوزينكو ، فلا شك أن المخابرات السوفيتية حذرته هو وباقي أعضاء الشبكة من الوقوع في أخطاء ، فبمراجعة أرقام البرقيات والوثائق التي حملها جوزينكو يمكن بسهولة معرفة محتوياتها ، ومنها بالطبع البرقيات التي تدور حول أليكس وأنتقاله إلى لندن .

ومن ناحية أخرى ذهب ليناردبيرت إلى جامعة الملك في لندن حيث كان المفروض أن أليكس يعمل محاضراً فيها ، وسأل عن ذلك العالم القادم من كندا ويختص بالبحث في النشاط الذري و الطبيعة النووية ، وعلى الفور علم بيرت شخصية أليكس .. أنه الدكتور آلان نون ماي عالم الطبيعة الذي قضى سنوات في معامل البحث وتوصل إلى نتائج هامة للغاية فيما يتعلق بالأنفجارات الذرية .

كانت المفاجأة مذهلة للجميع فالدكتور آلان نون ماي رجل بعيد تماماً عن الشبهات بالإضافة إلى أنه المسئول الأول عن الأبحاث النووية في كندا .. فكيف يصبح خائناً .؟! ومن خلال ملفه في الجامعة طالع بيرت مايأتي :

(الدكتور آلان نون ماي محاضر بالجامعة .. هو أقدم عضو في قسم الطبيعة الذرية)..

وتساءل بيرت .. ترى هل هو حقاً العميل أليكس ؟ أن هذا شيء يصعب تصوره .. كانت صورة الدكتور ماي أمامه برأسه الأصلع وعينيه الضيقتين وشاربه القصير ونظارته المعدنية وقامته القصيرة .. هل يمكن أن يكون هذا الرجل الوديع الضئيل الحجم هو سارق أخطر وأعظم أسرار الدول الغربية وهو سر القنبلة الذرية وإرساله إلى الأتحاد السوفيتي !!

عقب بحث الأمر على أعلى مستوى تقرر فرض رقابة صارمة طوال ساعات الليل والنهار حول الدكتور ماي لعله يقع في خطأ أو يلتقي بأحد من أفراد شبكة التجسس السوفيتية .. أنتشر مخبري ومفتش سكوتلنديارد في أماكن عديدة ومخابىء خفية حول جامعة الملك ، وفي الأيام المحددة من شهر

أكتوبر كانت المراقبة شديدة لكل المناطق المحيطة بمكان اللقاء وتمنى الجميع حضور أليكس حتى يتم التحقق من شخصيته ، وخلال تلك الفترة تبودلت البرقيات بين المخابرات البريطانية والكندية والأمريكية وعلم أن ماي كان رئيس مشروع الطاقة الذرية في كندا ، وأنه قام بزيارات عمل وأشترك في العديد من التجارب الهامة مع العلماء في موقع نهر تشوك السري و كذلك رحل إلى أمريكا وأشترك مع العلماء هناك في تجارب بموقع العمل بشيكاغو ، وعاد خلال تلك الأثناء إلى أنجلترا لبضعة أيام .

لم تكن هذه المعلومات كافية للإيقاع بالدكتور آلان نون ماي ، وأنتظر الجميع لعله يقع في الفخ .

سقوط الأقنعة

كان الأعتقاد الراسخ في أذهان المخابرات الغربية أن الدكتور آلان نون ماي هو العميل المقصود بأسم أليكس ، ولم تكن كافة الأوصاف والتصرفات التي ورد ذكرها بالبرقيات السرية تنطبق على أحد من العلماء سواه ، وأخيراً جاء اليوم الأول في المواعيد المحددة للمقابلة بين أليكس ورجل المخابرات السوفيتي والمسئول عن العمل في أنجلترا .. ولكن .. آلان نون ماي لم يحضر .. ولم يحضر في المواعيد التالية في أكتوبر أو نوفمبر حسب الواردبالبرقية وأدرك الجميع أن تحذيراً قوياً وصل إلى ماي وغيره من العملاء السوفيت ، وظل الدكتور ماي تحت رقابة مشددة في لندن ، ولاحظ المراقبون أنه يتصرف ببساطة شديدة ولا يفعل أي شيء يمكن أن يجلب إليه الشبهات ويعمل ويتحدث بطريقة عادية تماماً ويلقى محاضراته في الجامعة بأسلوب سهل وبسيط ، وعقب أنتهاءه من العمل يعود إلى منزله بشارع ستافورد ولا يلتقي إلا بعدد قليل من الأصدقاء المعروفين .

تواصلت المراقبة لعدة أسابيع دون جدوى ، ثم بدأت الأمور تتحرك على الجبهة الأخرى .. جبهة الجواسيس السوفيت حيث كانت السفارة السوفيتية

في كندا موضعاً للمراقبة أيضاً .. فقد أختفى فجأة الجنرال زابوتين الملحق العسكري أو .. جرانت ..عميل المخابرات الروسية ..أختفى دون أن يخطر الحكومة الكندية كما هو معمول به في الأحوال المشابهة ..حدث ذلك في شهر ديسمبر من عام ١٩٤٥ ، ومن خلال التحريات علم أن زابوتين غادر كندا على متن سفينة روسية أسمها أسكندر سوفاروف أتجهت عقب ذلك إلى نيويورك ثم أبحرت ليلاً في مخالفة صريحة للأعراف و القوانين المعمول بها في الميناء ، وأشيع نبأ غير مؤكد أن الرجل مات بنوبة قلبية مفاجئة .. وبالطبع لم يعلم أحد عنه أي شئ بعد ذلك وأنقطعت أخباره تماماً ..

وفي نفس الوقت تقريباً أختفى عدد من العاملين بالسفارة السوفيتية مثل الملازم أنجيلوف ، ومساعد الملحق العسكري .. ثم أختفى أيضاً السفير الروسي نفسه ويدعى زاروبين ، وقيل في تبرير هذا الأختفاء المثير للأقاويل أنه ذهب في زيارة رسمية !! ولم يعرف عنه شيئاً بعدها ، وأختفى كذلك مسئول المخابرات السوفيتية في كندا، وفي نفس الوقت كانت السلطات الكندية قد ألقت القبض على عدد كبير من العملاء الكنديين العاملين في خدمة المخابرات السوفيتية ، والذين وردت أسمائهم في وثائق وبرقيات أيجور جوزينكو .. وكان هؤلاء العملاء يتساقطون تباعاً حيث ظلت الرقابة مشددة عليهم مما أضعف من قوة تحملهم بالإضافة إلى شعورهم بالخوف نتيجة أختفاء رؤسائهم ومرشديهم .

وفي الثالث من فبراير عام ١٩٤٦ أعلنت الصحف الأمريكية نبأ إلقاء القبض على أعضاء شبكة تجسس كبرى كانت تتخذ من كندا مقراً لها وأن عدد الذين تم إقاء القبض عليهم بلغ ثلاثة عشر جاسوساً ..

منهم هارولد جيرسون وكان يشغل منصب رئيس قسم في مصلحة الذخائر والتموين ، وكان أبواه روسيين وقد وجد المحققون صعوبة بالغة في الأيقاع به نظراً لذكائه الحاد وأعصابه الفولاذية ، وكذلك تم التوصل إلى جاسوسية كانت تدعى نورا ، وعلم أن أسمها الحقيقي ريماوويكن ، تعمل

كاتبة أختزال في مصلحة الجوازات ، وأبويها روسيين ولذلك كانت تجيد الأنجليزية والروسية ، وعلم أنها تتعاطف مع الأتحاد السوفيتي وتتمنى تقديم أي مساعدة له ، وكانت تجيد الشفرة والأختزال ، وعندما نقلت إلى قسم الشفرة أتيحت لها فرصة ذهبية للإطلاع على كافة أسرار المصلحة ونقلتها إلى موسكو .

ولما لم يجد الكولونيل ليناردبيرت بدا توجه إلى الدكتور آلان نون ماي ليوجه إليه بضعة أسئلة .. فقد بدأت مرحلة تصفية الحسابات في بريطانيا ، كما هو الحال في كندا .. قال له لينارد :

- دكتور ماي .. هل علمت أن هناك بعض معلومات تسربت من كندا بخصوص الأبحاث النووية وأنتاج الأسلحة الذرية ؟

فنظر إليه آلان نون ماي بدهشة وأجاب بهدوء شديد : أنها بالفعل المرة الأولى التي أسمع فيها عن هذا !! وفي تلك الأثناء كان الكولونيل يراقب ملامح ماي بأنتباه شديد ، ويراقب رد فعله تجاه أسئلته المفاجئة كي يستدل من ذلك على ما يعتمل بداخله ، ولخيبة أمله الشديدة أدنى لم يلحظ أدنى أضطراب على ملامح الرجل ، وظلت نبرات صوته تسير على وتيرة واحدة دون تغير .. قرر لينارد أن يلقى بالقنبلة الثانية فجأة فقال : - ماذا عن الجنرال زابوتين أو جرانت وأنجيلوف وباكستر ؟!

لم تختلج في وجهه عضلة واحدة وأجاب بكل ثقة وهدوء :

- لا أعرف عما تتحدث يا سيدي .. لقد كانت لي مهمة محددة ولم أعمل شيئاً يتعلق بغيرها .. ربما كان هناك أختلاف في وجهات النظر !!

فقال لينارد بلهجة حادة وسريعة كي يهز أعصاب هذا الجبل الجليدي :

- ولماذا لم تذهب إلى موعدك المحدد في لندن في السابع من أكتوبر ؟

وفي هذه المرة لم يحاول الدكتور ماي الرد ، بل نظر إلى الرجل بأستعلاء وكأنه يتعامل مع شخص غير طبيعي مما أغاظ لينارد ، وفي نفس الوقت لم يكن لديه ما يواجه به ماي فتركه وأنصرف وهو يفكر في إلقاء القبض عليه

وإجباره على الأعتراف .. أنه واثق من تورط الدكتور آلان نون ماي في شبكة التجسس وأنه هو نفسه العميل السري الخطير أليكس ، ولكن لا يوجد لديه أي دليل مادي على ذلك .

ومن حسن حظه أن السلطات الكندية كانت قد قطعت شوطاً بعيداً في التحقيقات الجارية هناك بشأن شبكة التجسس النووية ، وحصلت على أعترافات هامة ، وتم إلقاء القبض على معظم المواطنين الكنديين المشاركين في العملية ، وأعترفوا بجرائمهم ، وكانت هناك أعترافات تساعد الكولونيل ليناردبيرت في توجيه الأتهام إلى غريمة البارد الدكتور ماي .. كانت أعترافات مفصلة وتؤكد أتصال الرجل بالمخابرات السوفيتية وهناك الكثير من الشواهد والقرائن على ذلك ، تم أستدعاء الدكتور ألان نون ماي إلى سكوتلنديارد ، وراح ليناردر يوجه إليه الأسئلة ويحاصره بلا رحمة ، وكلما حاول ماي الهروب ألقى عليه مفاجأة جديدة ، وأدرك ماي بذكائه أنه لا فائدة من المقاومة فقد سقط كل أفراد الشبكة واعترفوا .. أنه يلمس هذا بوضوح من خلال أسئلة الكولونيل ليناردر التي تواصلت خمسة أيام بلا رحمة .. وأنهارت أعصاب آلان نون ماي أخيراً وأجاب عن السؤال الهام بخصوص عدم ذهابه إلى الموعد مع وكيل المخابرات السوفيتية في لندن بقوله :

- لم أذهب لأنني قررت الأبتعاد عنهم تماماً .

وكان في ذلك أعترافاً بتورطه في تهمة التجسس .

وبدأت أعترافاته .. لم يذكر أسم أي شخص من الذين تعامل معهم ولكنه قال معترفاً بذنبه !

(منذ عام أتصل بي شخص لن أذكر أسمه ، وكنت وقتها في كندا ، وجدته يزورني بمنزلي هناك ويطلب مني الحصول على معلومات خاصة بالذرة والأبحاث التي تجري عليها .. وبعد تفكير طويل وجدت أن من حق دولة أخرى غير الولايات المتحدة الحصول على معلومات في مجال الذرة ، وأنه لا يجب أن تقتصر هذه المعرفة عليها وحدها !! وقررت أن أنشر هذه

المعلومات للناس ، ووافقت على أقتراح هذه الشخص).

أعترافات مثيرة

وتواصلت الأعترافات المثيرة للدكتور آلان نون ماي فذكر أنه عقب الزيارة الأولى التي قام بها هذا الشخص إلى منزله ، ألتقى به مرات عديدة في أماكن مختلفة ، وقد طلب منه أشياء كثيرة لم يفهم طبيعتها في ذلك الوقت

كان من بين تلك الأشياء المطلوبة عينات من اليورانيوم ، ومعلومات تفصيلية عن الطاقة الذرية ، وبالفعل أعطاه ماي كميات صغيرة من اليورانوم ٢٣٥ وكان مخصباً ، وكذلك أعطاه كمية من اليورانيوم ٢٣٣ وكان مركباً على صفيحة من البلاتين وملفوفاً بقطعة من الورق ، وأعترف كذلك بإعطاء الرجل تقريراً تفصيلياً مكتوباً بيده عن الأبحاث الذرية من وجهة نظره ، ولكن كل ما ذكر في هذا التقرير لم يخرج عن الأبحاث المنشورة والمعلنة على الملأ ، وأنه لم يرتكب خيانة ولم يفش سراً بما فعل .

وأعترف ماي كذلك بإعطاء الرجل معلومات عن قنابل المدافع التي تعمل بالألكترونات وأنها معلومات قليلة لأنه لم يكن يعرف الكثير في هذا الموضوع ، كما أنه نصحه بالأبتعاد عن عالم يدعى فيل ، وكان الرجل قد طلب التعرف به و التعامل معه .. وأعترف أيضاً بالحصول على بضعة دولارات من الرجل .

أما عن عدم ذهابه إلى الموعد المحدد في لندن للقاء مندوب المخابرات السوفيتية ، فأدعى آلان نون ماي أنه لم يذهب لأن هذا لا يتفق مع رغبته في إذاعة المعلومات عن الذرة بطريقة علنية ، وأنه كان يود أن يصبح الموضوع ذا صبغة عالمية حتى يصبح أنتاج الأسلحة النووية و التعامل معها تحت إشراف دولي وليس خاضعاً لدولة أو لبضع دول قليلة تتحكم في مصير العالم !!

وقال آلان نون ماى فى لهجة مسرحية :

(من المؤكد أن كل ما ذكرت كان مؤلماً على نفسي أشد الألم ، ولكني فعلته وأنا مقتنع به تماماً كوسيلة لأمن وسلام البشر جميعاً ، فكما ترون أنني لم أحصل على ربح مادي من كل ما فعلت)

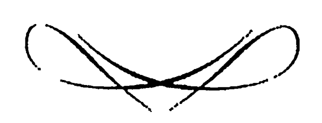
وبهذه الأعترافات تم إلقاء القبض عليه في مارس من عام ١٩٤٦ ، وعند القبض عليه لم ينطق ماي بكلمة وسار مع الضابط المكلف الأمر بهدوء .

وجرت محاكمة آلان نون ماي في محكمة أولدبيلي العريقة في شهر مايو من عام ١٩٤٦ حيث وجهت إليه تهمة أفشاء أسرار محرم عليه أفشاءها مما يضر بسلامة وأمن الدولة ، وأن هذه المعلومات نقلت إلى دولة معادية .. وسئل هل أنت مذنب أم غير مذنب ؟ فأجاب : مذنب ياسيدي القاضي .

وسخر المدعي العام من نظريته القائلة بضرورة تبادل المعرفة النووية بين الأمم ، وأن هذا لا يمنحه حق خيانة وطنه وإفشاء أسراره على الملأ وأعتراف ماي بحصوله على مبالغ مالية من جهات أجنبية يدحض كل أقواله .. فقد منحهم المعلومات والأسرار وحصل على الثمن .. فأي مثالية في ذلك ؟ أن هذا ما يفعله أي خائن أو عميل مأجور .. أنه عمل رجل غير شريف .. رجل يتقاضى أجره السخي من خزائن بلاده ، ويطلع على أخطر أسرارها ثم يفشيها للأعداء بحجج واهية غير مقبولة .

وصدر الحكم على الدكتور آلان نون ماي بالسجن عشر سنوات بتهمة الخيانة .

وهكذا حصل الأتحاد السوفيتي على أخطر وأهم وأقوى سلاح غربي ، ومن حسن حظه أن الأيقاع بشبكة التجسس الخاصة بسرقة سر القنبلة النووية قد تم عقب معرفته بأهم وأخطر الأسرار ، أما العملاء الذين سقطوا فقد كان عليهم التضحية من أجل أن تحيا الدولة الشيوعية قوية .. ألم يعلنوا جميعاً إخلاصهم للشيوعية ؟!



مراجع الكتاب

ـ جواسيس غيروا مجرى التاريخ ـ نور صالح .

ـ رجال شرفاء ـ وليم كولبي .

ـ العنكبوت الأحمر ـ دافيدلين .

ـ أسرار مثيرة من العالم ـ هاني الخير .

ـ حرب الجواسيس ـ عمرو يوسف .

ـ المخابرات والعالم ـ سعيد الجزايرلي .

ـ التحليل النفسي للجاسوسية ـ سمير عبده .

ـ الحجـــاب ـ بوب وارد .

ـ جواسيس وخونة ـ إبراهيم العربي .

ـ أشهر الأغتيالات السياسية في العالم ـ هاني الخير .

ـ الجاسوسية الحمراء ـ أحمد شوقي عبد الرحمن .

ـ السياسة بين السائل والمجيب ـ هيئة الأذاعة البريطانية .

ـ خبايا الأنهيار ـ فياتشيلاف شيرونين .

ـ أسرار الجاسوسية ـ شوقي عبد الرحمن .

الفهرس

هذا الكتاب

من خلال رصدنا ومطالعاتنا لعمليات التجسس والصراعات الدامية بين أجهزة المخابرات العالمية ، يمكننا القول أن المخابرات السوفيتة K.G.B وكانت تتمتع بمزايا كبيرة لا تملكها غيرها من الدول .

كما أنها قامت بتشغيل واجتذاب آلاف العملاء الذين يتفانون فى خدمة الشيوعية ومنهم من شغلوا أخطر المناصب فى الدول المعادية .

أنها رحلة مثيرة وشيقة للغاية نخوض فيها خلال الدهاليز السرية ونقتحم عالم الغموض والأسرار لأحد أعتى وأعرق أجهزة المخابرات فى العالم .. المخابرات السوفيتة والتى عرفها العالم بأسم K.G.B .

الناشر



الإسكندرية: ٤٨١٠٨٢٨ / ٤٨... فاكس ٤٨٦٠٠٨٩

القاهرة: ٠١٢٧٨٥٦٦١٣ ص . ب ٣٧٠ الإسكندرية

E- mail : maaruf 2004 @ hotmail . com

رقم الإيداع الدولى

977- 267- 256-4

كتاب رقم 740

المملكة العربية السعودية

مكتبة دار الشعب

ت : ٤١١١٢٠٧ الرياض

mail :dar_elshaab_library @ hotmail . com